

المبحث السابع

الردود على استبشاع عقوبة بني قريظة

أطال وأجاد الأستاذ باشميل في استعراض الردود اللازمة على المستشرقين وأبناء جلدتنا، حول موضوع عقوبة بني قريظة بالقتل، وأثبت هذا المبحث من كتابه (غزوة بني قريظة)، مع إضافة بعض الردود التكميلية من أقوال علمائنا الأفاضل لمزيد الفائدة حول هذا الموضوع الهام، القديم المتجدد. يقول أ/ باشميل: «بعد أن فصلنا حوادث خيانة يهود بني قريظة وما ترتب على هذه الخيانة المنكرة من نتائج خطيرة كان أهمها إعدام حوالي ثمانمائة مقاتل من هؤلاء اليهود وسبي نساءهم وذريتهم، ومصادرة كل ممتلكاتهم المنقولة وغير المنقولة.

بعد أن فصلنا هذا، لا بد لنا من وقفة على أطلال هؤلاء اليهود نتناول فيها بالبحث والتحليل هذه الناحية لإزالة ما يكون قد علق ببعض الأذهان حول صرامة حكم الإعدام والمصادرة والسبي الذي صدر ونُفذ بحق يهود بني قريظة، والذي يبدو لأول وهلة (للسطحين) أن فيه شيئاً من القسوة والوحشية، كما لا بد لنا في هذه الوقفة من مناقشة الطعون والرد على الانتقادات التي أوردتها البعض بشأن هذا الحكم الصارم الذي صدر ونُفذ في هؤلاء اليهود.

الطاعنون في حكم إعدام اليهود:

فهناك فريقان، لا يمر أحدهما بحادثة العقوبة النازلة بيهود بني قريظة، إلا ويعلن استنكاره للحكم النافذ في هؤلاء اليهود (وخاصة عقوبة الإعدام)، ويصفها بأنها عمل يتسم بالوحشية والقسوة. فريق رئيس، وهم غير المسلمين الذين يحرصون (دائماً) على نشر ظلال من الشكوك حول دعوة الإسلام، وإيجاد المطاعن في قطب هذه الدعوة وحامل لواء رسالتها محمد بن عبد الله ﷺ، وأهداف هذا الفريق الخبيثة ومقاصده السيئة معروفة مكشوفة، فهم أعداء أساسيون للإسلام ونبي الإسلام. وفريق ثانوي، وهم بعض المنتسبين إلى الإسلام وبعض المحسوبين عليه، الذين لا يعرفون عن هذا الدين إلا ما تلقوه في مدارس ومعاهد وجامعات أعدائه.

كل هؤلاء وأولئك يلمّحون ويصرّحون (أحياناً) بأن عملية الإعدام الجماعية التي تمت بحق يهود بني قريظة على تلك الصورة الصارمة السريعة، هي عملية قد اتسمت بطابع الوحشية والانتقام الذي يتنافى مع قواعد الإنسانية وروح القرن العشرين المتقدمة، لا سيما وأن اليهود قد وقعوا أسرى حرب في أيدي المسلمين.

تحذير لكل مسلم: وقبل الدخول في مناقشة هؤلاء الطاعنين في الحكم الصادر والنافذ بحق بني قريظة، وقبل رد هذه المطاعن وإبطالها بالحجج المنطقية والقانونية والوجدانية، لا بد لنا ولكل مسلم من الإقرار والتسليم - صيانة لديننا وحماية لإيماننا - بأنه ليس لنا الحق في أي تعقيب أو مناقشة - فضلاً عن الانتقاد - في أي حكم يصدر عن النبي الكريم ﷺ أو يقره ويمضيه.

لأن النبي محمدًا ﷺ لا يصدر في أي حكم إلا عن الله تعالى، إذ هو ﷺ كما قال جل وعلا: ﴿وَمَا يَطِئُ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ إِنَّ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم].

وأي إنسان ينتسب إلى الإسلام ويصدر منه أي طعن أو انتقاد لحكم يصدره رسول الله ﷺ أو يمضيه فهو كافر لا مكان له في الإسلام؛ لأن الذي يفعل شيئًا من هذا يعتبر معترضًا على الرسول الأعظم ﷺ، والذي يعترض على الرسول ﷺ إنما هو في الحقيقة معترض على الله وطاعن في حكم الله، والطاعن في حكم الله كافر حلال الدم بالإجماع.

والحكم الصادر في حق يهود بني قريظة هو - كما ثبت في صحيح البخاري - حكم الله الذي أراده وارتضاه كما بين ذلك النبي ﷺ، الذي قال للقاضي سعد بن معاذ ؓ عندما أصدر حكم الإعدام على يهود بني قريظة: «لَقَدْ حَكَمْتَ فِيهِمْ بِحُكْمِ اللَّهِ ﷻ مِنْ فَوْقِ سَبْعَةِ أَرْقَعَةٍ».

ومع إيماننا الكامل بكل ما ذكرنا وتسليمنا المطلق بعدالة ذلك الحكم الذي صدر بحق يهود بني قريظة ونُفذَ فيهم، فإننا مستعدون لمناقشة المعارضين الطاعنين في هذا الحكم، وأن نثبت لهم شرعية ووجاهة هذا الحكم، ومطابقته لكل قواعد العدالة التي يلتزمها القضاء والحكم في كل عصر وزمان، وحتى زمن القرن العشرين، وأنه يتمشى كل التمشي مع قواعد الإنسانية وأن ليس فيه أي تنافر مع إحساسات الضمائر الحية، والوجدانات المستقيمة.

ولنبداً المناقشة.

طبيعة اليهود الأبدية: لقد أثبتت مجريات الأحداث - منذ وصول النبي ﷺ إلى منطقة يثرب - أن هؤلاء اليهود بل كل يهود يثرب على أمر مييت للكيد للنبي ﷺ والقضاء عليه وعلى دعوته بأية وسيلة مهما بلغت من الخسة والوضاعة.

وأن الغدر والخيانة واستحلال دماء وأعراض وأموال كل من يخالف اليهود في دينهم ولا ينحدر من جنسهم، قاعدة عامة ثابتة لديهم، وطبيعة خبيثة متأصلة في نفوسهم وسابحة في دمائهم، لا تلبث أن تظهر وتبرز وتتجلى عندما تسنح لهم الفرصة، فيسيرون على هذه القاعدة اللعينة، حتى ولو كانوا قد أعطوا ألف عهد ووقعوا ألف ميثاق.

المعاهدة بين المسلمين واليهود: عندما جاء النبي ﷺ إلى يثرب ودان أهلها من الأوس والخزرج بالإسلام، وصار المسلمون في المدينة أغلبية ساحقة، عقد النبي ﷺ مع الطائفة اليهودية بقبائلها الثلاث: (بني النضير وبني قينقاع وبني قريظة) معاهدة شاملة، كان أهم ما جاء في هذه المعاهدة أن المسلمين واليهود أمة واحدة يشتركون في وطن واحد، وأن عليهم الدفاع المشترك عن هذا الوطن (يثرب): المسلم واليهودي يلزمه حمل السلاح لصد أي عدوان يأتي من الخارج يستهدف هذه المنطقة مهما كان مصدره.

أربع سنوات من المعاهدة: وفي ظرف أربع سنوات من هذه المعاهدة كشفت الأحداث المتلاحقة أن اليهود جميعاً (بقبائلهم الثلاث) ما قبلوا تلك المعاهدة وارتضوا بنودها ووقعوا عليها إلا مكرّاً وخداعاً، وأنهم ما كانوا يهدفون من ورائها إلا تطمين المسلمين ليشقوا بهم ويركتوا إليهم. وحتى إذا ما سحقت لهم الفرصة داسوا هذه العهود والمواثيق وشرعوا - دون إقامة أي اعتبار لحُلُق أو وجدان أو ضمير أو دين - في تسديد ضربتهم التي يحرصون على أن تكون قاتلة حاسمة.

ولقد عانى النبي ﷺ من هذا الحُلُق اليهودي الخبيث المتأصل، متاعب كثيرة، فبالرغم من تمسك النبي ﷺ بالمعاهدة المعقودة بينه وبين اليهود، ورغبته الصادقة في تطبيقها حرفياً والوفاء بها إلى أبعد الحدود فإن هؤلاء اليهود - دونما استثناء - كانوا لا تسنح لهم فرصة يرون أنهم قادرون فيها على تسديد ضربة قاتلة إلى المسلمين إلا وحاولوا استغلالها، وكأن لم يكن هناك بينهم وبين المسلمين عهد أو ميثاق.

لقد رأينا كيف صنع بنو قينقاع وبنو النضير وبنو قريظة معهم فحاربوا النبي ﷺ ونقضوا العهد الذي بينهم وبين المسلمين عندما ظنوا أنهم قادرون على نسف الكيان الإسلامي وتدميره، وكيف أن النبي ﷺ قد اكتفى بنفي بني قينقاع وبني النضير بعد أن ظفر بهم، وكانت عقوبة النفي هذه - فيما يبدو لنا - في مستوى الخطيئة التي ارتكبتها بنو قينقاع وبنو النضير.

ولقد حاربت بنو قريظة المسلمين مع بني النضير، ولكن - لاعتبارات خاصة - لم يُنفهم النبي ﷺ بل أقرهم وعفا عنهم بعد أن جددوا العهد الذي بينهم وبين المسلمين. [عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: حَارَبَتِ النَّضِيرُ وَقُرَيْظَةُ، فَأَجْلَى بَنِي النَّضِيرِ، وَأَقْرَبُ قُرَيْظَةَ وَمَنْ عَلَيْهِمْ، حَتَّى حَارَبَتْ قُرَيْظَةُ فَفَقَلَ رِجَالُهُمْ وَقَسَمَ نِسَاءَهُمْ وَأَوْلَادَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَّا بَعْضَهُمْ لِحَقْوِ الْبَنِيِّ ﷺ فَأَمَنَهُمْ وَأَسْلَمُوا، وَأَجْلَى يَهُودَ الْمَدِينَةِ كُلَّهُمْ بَنِي قَيْنِقَاعَ، وَهُمْ رَهْطُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ وَيَهُودُ بَنِي حَارِثَةَ، وَكُلُّ يَهُودِ الْمَدِينَةِ. البخاري في المغازي (٤٠٢٨) I.]

العهود والمواثيق في نظر اليهود:

ولكن هؤلاء اليهود عندما سحقت لهم الفرصة وظنوا أنهم قادرون على سحق المسلمين وإبادة خضرائهم إبادة كاملة، أقدموا على أحط عمل وأنذل صنيع في تاريخ النكث والغدر والخيانة. فقد استغل هؤلاء الجبناء الموقف العصيب الذي صار إليه حلفاؤهم المسلمون حينما أغرقتهم جيوش الأحزاب الحانقة الجرارة من كل مكان.

فقد ثارت بهم - آن ذاك - خصائص النذالة المتأصلة في نفوسهم وطبيعة الخيانة السابحة في دمائهم، فكشفوا القناع وظهروا من جديد على حقيقتهم.

وإذا بالعهود والمواثيق التي أبرموها مع المسلمين تصبح وكأنها لم تكن.

فقد مزق هؤلاء اليهود هذه العهود والمواثيق ووطؤوها بأقدامهم حينما ذهبوا إلى قيادة الأحزاب الغزاة يضعون يدهم في أيديهم وبعاهدونهم - في تلك الساعات الرهيبة الحاسمة من تاريخ الإسلام والمسلمين - على سحق المسلمين وهدم كيان الإسلام إلى الأبد.

ويأتي إليهم المسلمون الذين - كما شهد زعيم هؤلاء اليهود كعب بن أسد - لم يروا منهم ومن نبيهم إلا صدقاً في المعاملة ووفاء بالعهد.. يأتون إليهم ليطالبوا منهم الثبات على العهد، ويذكروهم بالمسؤولية العظمى والنتائج الوخيمة التي تترتب على النكث بهذه العهود والمواثيق، وخاصة في مثل تلك الظروف الحربية الدقيقة الحرجة.

وإذا بالجواب يأتي من قبل هؤلاء اليهود، سخرية واستهزاء بالنبي ﷺ وبالمسلمين، وبالعهود والمواثيق التي أبرموها معهم: «من هو محمد؟! هذا الذي يقول إن بيننا وبينه عهداً، ومن هو رسول الله؟، نحن لا نعرف محمداً وليس بيننا وبينه أي عهد!»

هكذا كان جواب يهود بني قريظة للمسلمين عندما جاء وفدهم إلى هؤلاء اليهود يطلب منهم الثبات على العهد الذي بين الفريقين والقيام بالالتزامات العسكرية التي عليهم والتي تفرض القيام بها نصوص تلك المعاهدة.

وهؤلاء اليهود لم يسلكوا هذا المسلك الوضع المنحط إلا وقد تكون لديهم ما يشبه اليقين بأنهم - بمساعدة الأحزاب - قادرون على تدمير الكيان الإسلامي تدميرًا كاملاً، واستئصال شأفة المسلمين استئصالاً كلياً؛ ولهذا لم يترددوا في الغدر بحلفائهم المسلمين وعلى تلك الصورة الفظيعة البشعة. وعلم الله لو أن هؤلاء اليهود قد ظفروا بالمسلمين، وتمكنوا - بمساعدة الغزاة - من احتلال المدينة لما ترددوا لحظة في الوصول بالمسلمين إلى أقصى مما وصل المسلمون بهم إليه، ولا أدل على ذلك من أن هؤلاء اليهود قد اتفقوا مع قادة جيوش الأحزاب على أن لا ينصرفوا بجيوشهم عن المدينة إلا بعد القضاء على المسلمين وسحقهم سحقاً كاملاً، وذلك كشرط أساسي لانضمام هؤلاء اليهود إلى الأحزاب ضد المسلمين وإعلانهم نقض العهد الذي بينهم.

بل لحرص هؤلاء اليهود على استئصال شأفة المسلمين وحرصهم على إبادتهم إبادة كاملة، طلبوا من القيادة المشتركة للأحزاب أن يسلموا إليهم رهائن من أبنائهم سبعين شاباً ليضمّنوا أن جيوش الأحزاب لن تسحب من منطقة المدينة إلا بعد أن تفرغ من المسلمين وتقضي عليهم قضاء تاماً.

فهل بعد هذا الصنيع الذي صنعه اليهود مع سبق الإصرار، والذي لم يُقدموا عليه إلا بعد درس وتخطيط وخبث نية مبيتة، هل بعد هذا الصنيع الخسيس الوضع الذي قام به هؤلاء اليهود، يجوز لعاقل منصف أن يسمح لنفسه بالقول: إن حكم الإعدام الذي صدر ونُفذ بحق يهود بني قريظة هو حكم غير إنساني ولا عادل؟

إلى المدافعين عن بني قريظة: إننا نقول - بكل صراحة واطمئنان وثقة - لهؤلاء المعارضين على الحكم الصادر والنافذ بحق يهود بني قريظة: إن هذا الحكم ليس فيه - كما تتوهمون - أية قسوة أو وحشية.

وإنما هو عقاب عادل نزل بخونة مجرمين يستحقونه، عقاب يطمئن إليه الضمير والوجدان، وتقره جميع الأعراف والقوانين الدولية وتنفذ مثله حتى هذه اللحظة؛ ولكي نبرهن على صحة القول من الناحية العرفية والقانونية نقول:

أهم بنود المعاهدة:

١ - لقد كان اليهود من سكان يثرب، فكانوا هم والمسلمون من الناحية القانونية في العرف الحديث يشكلون وحدة وطنية من حيث كونهم سكان بلد واحد قبل الإسلام وبعده.

وبعد أن قام شكل الحكم في يثرب - بعد وصول النبي ﷺ إلى المدينة ودخول الأنصار في الإسلام - قبل اليهود - دونما أي ضغط أو إكراه - أن يكونوا مع المسلمين أمة واحدة لهم ما لهم وعليهم ما عليهم تجاه هذا الوطن الواحد: (يثرب).

٢ - فقد عقد النبي ﷺ مع هؤلاء اليهود معاهدة مكتوبة (تنظر بنود هذه المعاهدة مفصلة في كتاب الوثائق السياسية) للسيد الدكتور محمد حميد الله ص (١) وقّع عليها زعماء الفريقين: (المسلمون واليهود) التزم فيها الفريقان الدفاع عن الوطن المشترك يثرب - يوم ذاك - ضد أي اعتداء يأتي من الخارج، سواء كان المقصود بهذا الاعتداء اليهود أو المسلمين.

فقد جاء في البند الرابع والأربعين من هذه المعاهدة بشأن الدفاع المشترك عن يثرب: (وأن بينهم - أي المسلمين واليهود - النصر على من دهم يثرب).

كما جاء في البند السادس والثلاثين من هذه المعاهدة: (أن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم، وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة - أي صحيفة المعاهدة - وأن بينهم النصح والبر دون الإثم).

اليهود والمسلمون أمة واحدة:

٣ - لقد أكد اليهود واعترفوا بتوقيعهم على هذه المعاهدة بأنهم والمسلمين أمة واحدة يجمعهم وطن واحد، يلزمهم ما يلزم كل مواطن إزاء وطنه، مع بقاء كل من المسلمين واليهود على دينه حراً. فقد جاء في البند الخامس والعشرين من هذه المعاهدة بهذا الشأن: (أن اليهود أمة مع المسلمين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم).

٤ - وبالإضافة إلى أن تقديم اليهود أية تسهيلات - مهما كان نوعها - لأي عدو يريد احتلال المدينة، بعد توقيعهم على هذه المعاهدة، يجعلهم - من ناحية العرف والقانون في جميع العصور - خونة يستحقون من العقوبة ما يستحق مرتكب الخيانة العظمى ضد وطنه في الظروف الحربية، فإن هؤلاء اليهود قد التزموا في هذه المعاهدة الامتناع عن تقديم أي عون لخصوم أي من الطائفتين (المسلمين واليهود)، وخاصة قريشاً (العدو رقم واحد للمسلمين).

فقد جاء في البند الثالث والأربعين من هذه المعاهدة: (وأنه لا تُجار قريش ولا من نصرَها).
 ٥ - بالإضافة إلى هذا كله اعترف يهود بني قريظة (في هذه المعاهدة) بالحكم الإسلامي القائم في يثرب، وإن لم يعترفوا بالإسلام رسميًا.

كان اليهود مواطنين يثريين: كما أقروا في هذه المعاهدة بأنهم مواطنون يثريون يجري عليهم (في ظل هذا الحكم) ما يجري على غيرهم، ما عدا الأمور المتعلقة بأحوالهم الشخصية كالزواج والطلاق والإرث، وما يتعلق بمعابدهم وطقوس عباداتهم، كما اعترفوا اعترافًا كاملاً بأن مرجعهم في جميع قضاياهم (عدا الدينية الخاصة بهم) هو الرئيس الأعلى لهذه الدولة محمد بن عبد الله ﷺ.

فقد جاء في البند الثاني والأربعين من هذه المعاهدة: (أنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث واشتجار يخاف فسادَه فإن مرده إلى الله ﷻ وإلى محمد رسول الله ﷺ، وأن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة).

٦ - بل لقد اعترف اليهود بتوقيعهم على هذه المعاهدة بأن محمد بن عبد الله النبي ﷺ هو الحاكم الأعلى لهؤلاء اليهود أنفسهم.

فقد جاء في البندين الخامس والسادس والثلاثين: (وأن بطانة يهود كأنفسهم، وأنه لا يخرج أحد منهم إلا بإذن محمد).

هذا هو الموقف العام الذي كان عليه المسلمون واليهود في منطقة يثرب، وهذه هي أهم بنود معاهدة التحالف والتوازن بين المسلمين واليهود.

ثم يكن اليهود مجبرين على المعاهدة:

٧ - لقد قبل اليهود هذا الوضع، وارتضوا تلك المعاهدة، ووقعوا عليها، والتزموا العمل بمقتضاها طائعين مختارين دون أن يُكرههم أحد، فقد ارتضوا ذلك الوضع ووقعوا على تلك المعاهدة، والدولة الإسلامية لما تزل وليدة ليس لها أية قوة عسكرية شهيرة مرهوبة، حيث إن هذه المعاهدة قد عُقدت بين الفريقين، قبل معركة بدر الكبرى التي تكونت بعدها القوة الإسلامية المرهوبة.

فقد كان اليهود عند عقد هذه المعاهدة - من الناحية العسكرية - في مركز ممتاز لا يمكن - معه - أن يُقال: إنهم قد عقدوا هذه المعاهدة بدافع من القوة والقسر.

فمنظرة فاحصة مجردة عن الهوى، إلى بنود هذه المعاهدة، ووقفه عدل وإنصاف وتدبر ومقارنة، عند أعمال الغدر والخيانة العظمى التي قام بها يهود بني قريظة ضد المسلمين في تلك الظروف الحربية العصبية التي كانت فيها المدينة - بأعراضها وأرواحها وحرثها ونسلها وكل ما يرتبط فيها بالمسلمين - في مهب العاصفة، نعم نظرة فاحصة مجردة ووقفه عادلة منصفة عند هذه الأعمال الخطيرة التي أقدم عليها يهود

بني قريظة ضد مواطنيهم وحلفائهم المسلمين، تجعل من الصعب على أي إنسان يحترم نفسه ولا يخضع لحكم العاطفة والهوى، أن ينكر شناعة الجريمة الكبرى وبشاعة الخيانة العظمى التي ارتكبتها هؤلاء اليهود في حق وطنهم ومواطنيهم.

كما أنه - أيضًا - من الصعب على أي إنسان يحترم نفسه، ويتمتع بكامل السيطرة على تفكيره وعقله، أن يزعم أن الحكم الذي صدر ونُفذ بحق هؤلاء اليهود المجرمين، فيه شيء يتنافى مع قواعد العدل ومبادئ الإنسانية وأسس القانون الدولي العام.

لقد كان اليهود بحكم وجودهم في منطقة يثرب وبحكم استيطانهم مع العرب في هذه المنطقة منذ مئات السنين ثم بحكم المعاهدة المعقودة بينهم وبين المسلمين التي بموجبها ارتضوا أن يكونوا أمة مع المسلمين وارتضوا البقاء في ظل الدولة القائمة بعد الاعتراف بها وارتضاهاهم وإعلانهم بأنهم جزء لا يتجزأ من مواطنيها، نعم بحكم ذلك كله أصبح يهود بني قريظة مواطنين يثريين يلزمهم (في ظل الدولة القائمة) الدفاع عن هذه المنطقة، ويترتب عليهم من الأحكام والالتزامات ما يترتب على أي مواطن في هذا العصر.

لقد ارتكب يهود بني قريظة ثلاث جرائم، تكفي واحدة منها لإدانتهم (قانونيًا) بالخيانة العظمى التي تبرر - في جميع قوانين الدنيا حديثًا وقديمًا - الحكم عليهم بالموت:

١ - اتصا بهم بالعدو ونقلهم إليه أسرارًا عسكرية تقيده وتعرض سلامة جيش المدينة (وطن هؤلاء اليهود) لأشد الأخطار.

٢ - مدّهم العدو الغازي بكل ما أمكنهم من عون مادي وتأييد أدبي ومعنوي يسر له مهمة احتلال وطنهم المدينة والقضاء على مواطنيهم.

٣ - (وهو الأخطر) رفعهم السلاح ضد جيش المدينة (وطنهم) ونكثهم العهد وإعلانهم الاستعداد لضرب مواطنيهم من الخلف، في ظروف هي أدق ما شهد النبي ﷺ وجيشه في تاريخ حياته.

سؤال قانوني: والسؤال الذي نحب توجيهه إلى المعارضين والمستهجنين للحكم الصادر والنافذ بحق يهود بني قريظة هو: ما هو الحكم اليوم الذي يجب إنزاله - في جميع القوانين الدولية - بمن خان وطنه وغدر بأتمته وشرع - أثناء ظروف حربية قائمة - في الاتصال بالعدو الذي جاء غازيًا لاحتلال وطنه وسحق مواطنيه وأخذ - بطريقة أو أخرى - يسر له سبل هذا الاحتلال؟

أعتقد أن أحدًا من هؤلاء المعارضين لن يستطيع القول إن قانونًا واحدًا في أي بلد من بلاد الدنيا سيقول لمن أقدموا على مثل هذه الجرائم التي ذكرنا، اذهبوا فأنتم الطلقاء.

بل أعتقد أن واحدًا من هؤلاء المعارضين لن يستطيع إلا أن يقول: إن أقل عقوبة يمكن إنزالها بمن ارتكب مثل هذه الجرائم التي أشرنا إليها هي الموت.

لأن جميع قوانين الدنيا - بلا استثناء - تنص على أن الموت ومصادرة الممتلكات هي العقوبة العادلة التي يجب أن تنزل بمن ارتكب مثل تلك الجرائم التي ذكرنا.

بنو قريظة في نظر القانون الدولي: فإذا عرفنا هذا وافقنا على أنه ليس من الظلم ولا من الوحشية في شيء إصدار حكم الإعدام وتنفيذه بحق المواطن الذي يتصل بالعدو في حالة الحرب القائمة ويسر له - ولو ببعض المعلومات - مهمة احتلال وطنه أو الإضرار بدولته وأمته، فإن سؤالاً أهم من السؤال الأول لا بد للمعتريين على الحكم الصادر والنافذ بحق يهود بني قريظة من الإجابة عليه وهو: ما هو - في عرف جميع القوانين - حكم الذي ينقل معلومات إلى العدو تنفعه وتيسر له الإضرار بالأمة وتعرض الوطن للخطر فحسب، بل ما حكم الذي يستغل حراجه ظروف وطنه ومواطنيه الذي هو جزء منهم وقيم بينهم فيخون ويغدر، ويطعن وطنه وأمته من الخلف.

فيشهر السلاح في وجه دولته ومواطنيه، ويعلن انضمامه إلى العدو الغازي في تلك الظروف الحربية الدقيقة المخيفة، قاصداً من وراء غدره وخيائته إخضاع وطنه للغزاة وسحق الفئات الأخرى من بني وطنه وإسقاط النظام القائم - بحد السلاح وبالتواطؤ مع العدو - الذي ارتضاه واعترف به وعاش في ظله آمناً مطمئناً لم يهضم له حق ولم يكن إلا محل الرعاية والوفاء؟

أعتقد أن أحداً - وحتى من المستبشرين للحكم الصادر في حق بني قريظة - لن يكون جوابه - إذا كان يحترم عقله - على هذا السؤال إلا الاعتراف بأن جميع قوانين وأعراف الدنيا في الحاضر والماضي تنص - بالإجماع - على أن الموت والمصادرة هي عقوبة كل من يُقدم على هذه الجرائم التي أشرنا إليها.

وحيث إن هذا أمر متفق عليه - بلا جدال - عند جميع الأمم - قديماً وحديثاً - فإنه من التحامل والتعسف والافتراء القول بأن الحكم الصادر في حق بني قريظة هو حكم غير عادل ومخالف لقواعد الإنسانية.

لأن هؤلاء اليهود قد جمعوا في تصرفاتهم الخائنة الغادرة ضد المسلمين كل الجرائم التي عقوبة واحدة منها (فقط) الموت في جميع قوانين الدنيا في كل الأعصار والأزمنة.

فاليهود لم يكتفوا بالتجسس على مواطنيهم لحساب العدو في حالة الحرب، ولم يكتفوا بمد هذا العدو بالمساعدات المادية والأدبية التي تيسر له مهمة احتلال المدينة ووطن الجميع المشترك - يوم ذاك - وهي أعمال تُصنّف في باب الخيانة العظمى التي عقوبتها الموت في جميع قوانين العالم، نعم لم يكتفوا بهذه الأعمال فحسب، بل - بالإضافة إلى كل ذلك - شهبوا السلاح في وجه الجيش الإسلامي المشغول بمواجهة الغزاة، وأعلنوا قطع كل صلة تصلهم بحلفائهم ومواطنيهم المسلمين، وانضموا في تلك الساعات المزلزلة، إلى قوات العدو الغازية مستهدفين سحق المسلمين - بسرعة - سحقاً كاملاً مستغلين الموقف

الدقيق المتأزم الذي بلغت فيه حالة المسلمين من الضيق والشدة حد الاختناق، ضارين بكل المثل والأعراف والقوانين والعهود والمواثيق عرض الحائط.

إن يهود بني قريظة - وقد ظهرت نواياهم الخبيثة وتكشفوا على تلك الحالة من اللؤم والخسة والدناءة - لو تم النصر لهم وللأحزاب على المسلمين لما اكتفوا إلا باستئصال شأفة المسلمين ومصادرة كل أملاكهم وسبي جميع نسائهم وذرائعهم.

وهذا أمر مبيت منهم للمسلمين بالتأكيد، فهم لم يقدموا على تلك الخيانة العظمى فيتواطؤوا مع العدو الغازي إلا وقد وضعوا نصب أعينهم - كهدف أول - إيادة المسلمين عن آخرهم.

وقد تجلّى هذا المقصد الخبيث من اليهود عندما طلبوا من الأحزاب - كشرط أساسي لانضمامهم إليهم - أن لا ينسحبوا ويفكوا الحصار عن المدينة إلا بعد سحق المسلمين واستئصال شأفتهم، وأخذوا بذلك العهد على مندوب الأحزاب (حيي بن أخطب) فتعهد لهم بذلك باسم الأحزاب.

فكيف - إذن - بعد هذه الحقائق الدامغة كلها، وبعد هذه الأعمال التي قام بها اليهود، والتي يكفى البعض منها - فكيف بها مجتمعة - لإدانة هؤلاء اليهود بالخيانة العظمى التي عقوبتها الموت والمصادرة في جميع قوانين الدنيا.. كيف بعد هذا كله يسوغ لعاقل منصف يحترم نفسه أن ينفي صفة العدل والإنصاف عن الحكم الصادر والنافذ بحق هؤلاء اليهود الذين لم ينتهوا إلا إلى المصير الذي حاولوا - خيانة وغدرًا وبكل الوسائل الخسيسة - أن يصلوا بالمسلمين إليه؟

ولماذا يكون من العدل والإنصاف تنفيذ حكم الإعدام - في هذا العصر - فيمن ارتكب جريمة واحدة فقط من الجرائم التي أشرنا إليها والتي تكفى واحدة منها بإزالة عقوبة الإعدام بمرتكبها كنقل أسرار حرية إلى العدو - فقط - كما يحدث في هذا الزمن، ولا يكون من العدل والإنصاف، بل يصبح من القسوة والوحشية والظلم، تنفيذ حكم الإعدام فيمن ارتكب كل هذه الجرائم الخطيرة مجتمعة كما فعل بنو قريظة؟
ألأن المحكومين يهود والحاكمين مسلمون أم ماذا؟

إننا لا نزال نسمع كل يوم بأحكام الإعدام تصدر بحق أناس في أمريكا وأوروبا وكل العالم المسمى - بالعالم الحر - لا لأنهم انضموا إلى الأعداء وشهروا السلاح في وجه دولتهم ومواطنيهم، وإنما لأنهم نقلوا إلى العدو معلومات تقيده وتيسر له الإضرار بوطنهم ومواطنيهم.

فما حلّ ليهود بني قريظة - إذن - من عقاب صارم إنما هو جزاء عادل، يستند إلى قاعدة دولية عامة في كل عصر وزمان، وهو بعيد كل البعد عن أي شطط أو انحراف عن مبادئ العدالة والإنصاف، لا سيما في ذلك العصر الذي لو وقع فيه المسلمون في أيدي يهود بني قريظة والأحزاب الذين تواطأ معهم يهود بني قريظة، لما صاروا - أي المسلمون - إلا إلى أقسى مما صدر إليه هؤلاء اليهود على أيدي المسلمين.

اليهود خونة لا أسرى حرب: قد يقول قائل متبجح: لماذا لم يُعامل النبي القائد ﷺ يهود بني قريظة كما يعامل القائد المنتصر رجال جيش العدو الذي حارب وكتب له الفشل في حربه فانهمز واستسلم، كما هو الحال في هذا العصر؟

والجواب على هذا التساؤل هو (من ناحية القانون الدولي العام المعاصر):
إن اليهود عندما فعلوا ما فعلوا بانضمامهم إلى قوات الأحزاب الغازية ضد المسلمين، لم يكونوا في حالة حرب مع المسلمين، بل لم يكونوا حتى في حالة تعاد أو تنافر.
وإنما كانوا أصدقاء متحالفين مع المسلمين، بل ومواطنين هم والمسلمون أمة واحدة يشكّلون وحدة وطنية لا تتجزأ، مُلزمون هم والمسلمون - على حد سواء - بالدفاع المشترك عن الوطن الواحد المشترك وهو الوطن الثري، كما نصت على ذلك الاتفاقية المعقودة بينهم.
فيهود بني قريظة - من وجهة نظر القانون الدولي العام - لا يمكن وضعهم في مكان العدو الذي استسلم وهو يخوض حرباً مشروعة - قانوناً - كالحرب التي تشب - لسبب من الأسباب - بين دولة ودولة.

وإنما مكان هؤلاء اليهود - من وجهة نظر القانون الدولي العام - هو مكان الخائن المتآمر المتواطئ مع العدو على أمته ووطنه في حالة الحرب القائمة، وحكم الذي شأنه هكذا عند الظفر به معروف لدى الخاص والعام، ومنصوص عليه في جميع القوانين الدولية، وهو الإعدام لا غير.
فيهود بني قريظة ليسوا أسرى حرب بالمعنى المتعارف عليه دولياً، حتى يُقال: لماذا لم يعاملهم محمد ﷺ مثلما عامل غيرهم ممن وقع في يده من أسرى الحرب الآخرين، وإنما هم خونة غادروا ارتكبوا جريمة الخيانة العظمى ضد وطنهم وأمتهم، فظفرت بهم يد العدالة، بعد أن أدانتهم بالتواطؤ مع العدو ضد الوطن الذي هو وطنهم، والأمة التي هم جزء منها، والدولة التي هم في ظلها؛ ولهذا فالحكم الذي صدر بحق هؤلاء اليهود ونُفذ فيهم، إذا نظرنا إليه - فقط - من زاوية العُرف والقانون المتعارف عليه والمعمول به في القرن العشرين عند جميع الدول، وجدنا أنه يتفق كل الاتفاق مع هذا العُرف وذلك القانون من جميع الوجوه.

ولعل الذين يستبشعون الحكم الذي صدر ونُفذ بحق يهود بني قريظة، ينسون أو يتناسون أنه في القرن العشرين هذا - قرن التقدمية والتمدن كما يسمونه - قد سمعنا ولا نزال نسمع بأحكام تصدر بالموت وتنفذ - في ظل القانون - بحق أناس، لا لأنهم ارتكبوا مثلما ارتكب يهود بني قريظة من جرائم الغدر والخيانة العظمى ضد مواطنيهم ووطنهم المدينة، وإنما لأنهم نقلوا - فقط - إلى عدو غير محارب بعض الأسرار التي تتعلق بسلامة الجيش والقوات المسلحة، كذلك الأمريكي الذي نُفذ فيه حكم الإعدام؛ لأنه كان على اتصال بالروس ونقل إليهم أسراراً حربية تتعلق بصنع القنبلة الذرية وغيرها.

فكيف بالله - إذن - يكون من العدل المتمشي مع روح القرن العشرين إعدام مواطن أو مواطنين، لأنهم - فقط - نقلوا إلى العدو أسرارًا تتعلق بسلامة الجيش.. أسرارًا ليس من المؤكد أن نقلها سيعرض الجيش للإبادة وإنما يمكن قيادة العدو المنتظر - روسيا - من الاستفادة عسكريًا، ويكون من الظلم والوحشية إعدام المواطن الذي لم يكتف بنقل أسرار جيش بلاده إلى العدو والمحارب المحيط ببلاده، بل شهر السلاح في وجه هذا الجيش وهو في أحلك ليالي محتته، وشرع - بالاتفاق مع العدو الغازي - في تسديد طعنة إلى الجيش، فألف قوة مسلحة داخل الوطن المشترك، واتصل بالعدو اتصالًا مباشرًا مكشوفًا، وأعلن انضمامه إليه مستهدفًا إبادة الأمة التي هو جزء منها وتسهيل احتلال الوطن الذي هو شريك فيه، وتدمير الجيش الذي كان من المفروض أن يكون في صفوفه مدافعًا عن الوطن المشترك؟

أعتقد أنه لا جواب عند هؤلاء المعارضين والمستبشعين لما نزل بيهود بني قريظة إلا الفلسفة الفارغة والمغالطة المكشوفة التي تمليها الرغبة المبيتة الملحة في الطعن والتشويه لكل ما هو إسلامي فحسب..

إن يهود بني قريظة - بالإضافة إلى صفة المواطن - كانت لهم صفة الجندي والضابط الذي يجب أن يكون قوة محاربة داخل جيش المدينة ضد أي اعتداء تتعرض له (يثرب) الوطن المشترك للمسلمين واليهود - يوم ذاك - كما تنص على ذلك الاتفاقية المعقودة بين الفريقين.

فاليهود إذن - كما قلنا - ليسوا أسرى حرب بالمعنى المعروف حتى يقال: إن إعدامهم على تلك الصورة الجماعية وحشية وقسوة تتنافى وروح القرن العشرين، بل هم قوم مواطنون ارتكبوا - ضد أمتهم ووطنهم - الخيانة العظمى، وعلى درجة لم يصل إليها أحد قبلهم ولا بعدهم في البشاعة والفظاعة والدناءة، هذا من جهة.

لكل دولة قانونها الخاص، ومن جهة أخرى، فإن المتعارف عليه - دوليًا في كل عصر وزمان - هو أن لكل أمة ودولة قانونها الخاص الذي تسير على نهجه في سلمها وحررها.

ودولة الإسلام - يوم نزل العقاب ببني قريظة - كان لها قانونها الثابت الذي تنطبق نصوصه على كل مواطنيها: مسلمين وغير مسلمين، كما هو معروف بالتواتر لدى جميع المفكرين.

وقانون الإسلام - كما هو في الدستور الأعلى: القرآن - يجعل مصير أسرى الحرب إلى الإمام، وهو الحاكم والقائد الأعلى للجيش ليتصرف فيهم وفق مصلحة الأمة والدولة والدين.

[ينظر: المغني لابن قدامة ٣٧٢/٨، والمحلى لابن حزم ٢٩١/٧ وما بعدها].

وعلى ضوء هذا الحق الذي أعطاه القانون الإسلامي - في حالة الحرب - لرئيس الدولة والقائد الأعلى للجيش، فإن يهود بني قريظة حتى لو كانوا أسرى حرب بالمعنى المتعارف عليه، وأمر القائد الأعلى النبي

ﷺ بإعدامهم، فإنه من ناحية العرف السائد دوليًا لا مكان للاستنكار مطلقًا^(١).

لأن النبي القائد ﷺ إنما كان تصرفه هذا في حدود القانون الذي التزم العمل به وقام بتطبيقه في كل مناسبة على نفسه وعلى جميع أفراد شعبه، ولا لوم من وجهة النظر الدولية ولا اعتراض على من طبق قانون بلاده فيها على غير أبناء بلاده فكيف بأبناء بلاده؟

إعدام اليهود والاتفاقات الدولية:

يُضاف إلى هذا أنه - عند حادثة بني قريظة - لم تكن هناك معاهدات دولية تُحرّم إعدام المحاربين المستسلمين كما هو اليوم، ارتبط بها النبي القائد ﷺ حتى يسوغ للمشوشين والطاعنين بالباطل أن يقولوا: إن محمدًا ﷺ - بإعدام يهود بني قريظة - قد خالف العرف والقانون الدوليين.

بل إن النظام الشائع يوم ذاك عند جميع الأمم - مسلمين وغير مسلمين - أن أسرى الحرب يكون مصيرهم في يد الرئيس الأعلى للدولة، وأحيانًا إلى قائد الجبهة ليتصرف فيهم وفق المصلحة.

وعلى فرض أن يهود بني قريظة أسرى حرب بالمعنى المتعارف عليه، وليسوا خونة غادرين ارتكبوا الخيانة العظمى ضد وطنهم ومواطنيهم (مع أنهم كذلك بالتأكيد)، فإن مصلحة المسلمين وسلامة كياناتهم استلزمت إبادة هؤلاء اليهود الذين - بالإضافة إلى ارتكابهم الخيانة العظمى التي عقوبتها الموت - كانوا قوة محاربة دلت الأحداث المتلاحقة على أن بقاء هذه القوة داخل المدينة أو إعطاءها الحرية في الجلاء سيكون - بالتأكيد - مصدر خطر كبير يهدد سلامة دولة الإسلام الوليدة في كل لحظة، هذه الدولة التي لم ير اليهود من رجالها إلا البر والعدل والوفاء.

فقد دلت التجارب العملية المتكررة مع هؤلاء اليهود أنهم على أتم استعداد لاغتنام أية فرصة، وسلوك أي سبيل - مهما كانت خسته ووضاعته - للإطاحة بحكومة المدينة، وهدم الكيان الإسلامي من الأساس. كما حدث من إخوانهم يهود بني النضير الذين أعفاهم النبي ﷺ من القتل بعد استسلامهم، ثم سمح لهم بالجلاء من المدينة إلى حيث شاؤوا.

[ينظر تفاصيل محاصرة يهود بني النضير في الباب الخامس من مجموعة غزوة أحد من هذا الكتاب].

فعندما سنحت الفرصة لبني النضير لم يترددوا في القيام بتنظيم أخطر غزو تعرضت له المدينة في تاريخها، حيث سعى زعماء هؤلاء اليهود واستخدموا أموالهم ونفوذهم لتحشيد أقوى القبائل العربية

(١) من الثابت المُجمع عليه عند جميع المؤرخين ورواة الحديث أن النبي ﷺ لم يقتل من الأسرى (طيلة حياته) سوى ثلاثة، وهم:

١ - عقبة بن أبي معيط. ٢ - النضر بن الحارث العبدري، وكان هذان الرجلان من كبار مجرمي الحرب.
٣ - أبو عزة - عمرو بن عبد الله الجمحي - أسره المسلمون في بدر وأطلق النبي ﷺ سراحه على أن لا يحمل السلاح ضد المسلمين، ولكنه غدر وحمله مرة أخرى في غزوة أحد، فأُسِر مرة أخرى فأمر النبي ﷺ بإعدامه.

الوثنية المحاربة ضد المسلمين، وكوّنوا منها ذلك الجيش الضخم الذي بلغ أكثر من عشرة آلاف مقاتل، وجاؤوا في مقدمة هذا الجيش العظيم مستهدفين سحق المسلمين وهدم كيان الإسلام من الأساس.. بل كما حدث من يهود بني قريظة أنفسهم الذين حاربوا النبي ﷺ مع بني النضير، ثم أعفاهم النبي ﷺ - بصفة خاصة - من القتل والنفي والمصادرة (كما هو ثابت في صحيح البخاري).

فيهود بني قريظة هؤلاء - بالرغم من إحسان النبي ﷺ إليهم وإعفائهم بصفة خاصة من القتل والنفي والمصادرة، بعد أن ثبت اشتراكهم في الحرب ضده مع بني النضير - فإنهم عندما سنحت لهم الفرصة، لم يتورعوا عن الإقدام على ذلك العمل الفظيع، الغدر بالمسلمين ومحاولة القضاء عليهم بالاشتراك مع الأحزاب.

فعملية إبادة حوالي ثمانمائة مقاتل من يهود بني قريظة إنما هي عملية تتطلبها مصلحة الأمة، وهو عمل ضروري لسلامة الأمة والدولة، ويقره القانون السائد في الأرض التي يقطنها هؤلاء اليهود. سكان هيروشيما وبنو قريظة: وإذا قارنًا عملية القصاص العادل الذي به أباد المسلمون حوالي ثمانمائة مقاتل من خونة يهود بني قريظة المحاربين، إذا قارنًا هذه العملية التي يستهجنها بعض الباحثين عن المطاعن الموهومة في الإسلام، إذا قارنًا هذه العملية بما ارتكبه ولا يزال يرتكبه هؤلاء الذين يتشدقون بذكر وحشية عملية إبادة بني قريظة ويتجحون بذكر مدنية القرن العشرين وعدالة القرن العشرين وحقوق الإنسان لوجدنا أن عملية واحدة من عمليات الإبادة التي أقدموا عليها تكفي لأن تجعل عملية إبادة بني قريظة شيئًا لا يكاد يُذكر.

فكم سمعنا ولا نزال نسمع ويسمع ويرى العالم كيف يحصد هؤلاء المتمدنون مئات الآلاف من النساء والشيوخ والأطفال الذين لم يكونوا يومًا من المحاربين، ويستأصلون شأفتهم باسم القانون وحماية الوطن وسلامة الدولة.

فأين - مثلاً - إبادة ثمانمائة مقاتل - خونة محاربين ناكثين غادرين - نزل بهم حكم الإعدام قصاصًا، من مائتين وخمسين ألفًا غير محاربين ولا خونة ولا ناكثين ولا غادرين، مسحهم من الوجود هم ومدينتهم نساءً وأطفالًا وشيوخًا، قبلة ذرية واحدة ألقت بها عليهم - عن قصد وسابق تخطيط - طائرة حربية تابعة لدولة يُقال حتى هذه اللحظة إنها أم الحريات ومعدل الدفاع عن الإنسانية، وهي دولة الولايات المتحدة الأمريكية، التي ألقت سلاح طيراتها تلك القبلة على مدينة (هيروشيما العزلاء الآمنة في اليابان) في أواخر الحرب العالمية الثانية، كما ألقت مثلها على سكان مدينة (نجازاكي العزلاء كذلك) فأباد وشوه - أيضًا - مئات الآلاف من الشيوخ والنساء والأطفال العزل؟

نعم أين إعدام ثمانمائة يهودي قُتلوا بعد محاكمة وإدانة صريحة بالخيانة العظمى والغدر البشع، من حصد أرواح مئات الآلاف من النساء والشيخوخ والأطفال العُزَّل اليابانيين دون أن يقترفوا ذنباً أو يرتكبوا خطيئة؟ وبعد: ألا ينجح هؤلاء المتعصبون ضد الإسلام والباحثون له كل يوم عن مطعن يحط من شأنه، ألا ينجح هؤلاء هم وفروخهم من المنتسبين إلى الإسلام والطاعنين - باسم الإنسانية - في الحكم الصادر والنافذ بحق هؤلاء اليهود الخونة.. ألا ينجح هؤلاء هم وفروخهم من المحسوبين على الإسلام حينما يتشدقون بطعونهم في حكم الإعدام الصادر بحق ثمانمائة يهودي ارتكبوا الخيانة العظمى، ويصفونه بأنه حكم وحشي لا يتفق مع روح القرن العشرين المتمدنة، وهم يعلمون أن أسيادهم - ومن يُعتبرون في الذروة من مدنية القرن العشرين - قد حصدوا أرواح مئات الآلاف من غير المحاربين من الشيخوخ والنساء والأطفال عن قصد وتخطيط وسابق إصرار؟ [غزوة بني قريظة لباشميل ٢١٧-٢٤٣].

عدالة المدنية في القرن العشرين:

يقول الشيخ عبيد: «إن عملية إبادة حوالي ثمانمائة مقاتل من يهود بني قريظة مراعاة لصالح الأمة وسلامة الدولة تقارن هذا بما قامت به أمريكا في القرن العشرين برمي القنابل الذرية على سكان هيروشيما التي كان سكانها يزيد عددهم على «مائتين وخمسين ألفاً» مسلمين ليسوا بمحاربين ولا خونة ولا ناكثين للعهد ولا غادرين بأحد، وإنما هم من الآمنين الوادعين الذين لم يحملوا السلاح، وكان فيهم النساء والأطفال والشيخوخ.

وقامت طائرة بعد تخطيط سابق وقُصد ودمرت هذا العدد دون حساب.

كما ألقى مثل هذه القنبلة على سكان مدينة نجازاكي العُزَّل فأبادوا مئات الآلاف ومن نجا من المدينتين عاش مشوّهاً بفعل أثر القنابل الذرية.

لقد حصدت مئات الأرواح من الأطفال والآلاف من النساء والآلاف من الشيخوخ والآلاف من الرجال العُزَّل اليابانيين الذين لم يقترفوا ذنباً ولم يرتكبوا أي خطأ.

فعدالة القرن العشرين ومع ميثاق هيئة الأمم المتحدة التي أعلنت حقوق الإنسان تمت هذه الإبادة التي أقدم عليها الذين يكون على الثمانمائة من اليهود الخونة الذين مات ضميرهم وباعوا وطنهم، ألا ينجح هؤلاء؟! الذين حصدوا مئات الآلاف من أرواح الأبرياء بالقنبلة الذرية، ألا ينجح هؤلاء الذين لو ثوا تاريخ البشر وهم يتشدقون ويقولون نحن في ذروة المدنية، أي مدنية هذه التي يتحدثون عنها؟ أهى التي أباحت بقانون لطيارهم في الحرب العالمية الثانية أن يقتلوا تحت الأنقاض في ليلة واحدة أربعين ألف إنسان من المدنيين العُزَّل؟ وقد حدث هذا في مدينة هامبورج الشهيرة عندما شنت طائرات الحلفاء غاراتها الوحشية وارتكبوا هذا الجرم الفظيع، أهذه هي المدنية التي يجعلها ضعاف العقول مقياساً أعلى

للإنسانية والرحمة والعدل؟ أين هذا العدل الذي يتحدثون عنه في ظل قوانينهم كانت التفرقة العنصرية التي ما زالت تسيطر على روح الكثير ممن يعتقدون مبدأ هذه الدول.

يا قوم أن لكم أن تفكروا وأن تعلموا أن ما يجري في ساحة المسجد الأقصى وحوله إنما يعود إلى ما قدمناه أن اليهود لا يحبون إلا أنفسهم، وقد قالوا كما حكى القرآن عنهم: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيَّتِ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٥].

إن اليهود لن يستطيعوا أن يتعايشوا بسلم وسلام مع المجتمع الإنساني إلا إذا قلعت أظافرهم وانحصر مداهم وتعامل المجتمع معهم بالقوة؛ لأنهم أحرص الناس على حياة ومحاولون سفك دماء غيرهم، ويقولون كما حكى القرآن عنهم: ﴿أَفَنظَمُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يَحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٧٥].

إن قلوبهم أشد قسوة من الحجارة لأنهم غرسوا على الخطيئة وتشربت أرواحهم الإجرام فأنكروا الحق بعد معرفته وتناولوا على «الله»، وخذ مثلاً عندما ذهبوا إلى النبي ﷺ وقالوا في تعنت وعبت واستهتار: يا محمد صف لنا ربك كيف ذراعه؟ كيف عضده؟ فغضب الرسول ﷺ أشد الغضب فأتاه جبريل ﷺ وتلا عليه الجواب المسكت لسؤالهم: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧].

إن اليهود في هذه الأيام يشنون على الإسلام وأتباعه الحرب الباردة، وفي نفس الوقت يخططون في كل يوم لحرب ساخنة، فأين المسلمون؟ سؤال له إجابته إن شاء الله عندما يظهر صلاح الدين الأيوبي، وهو أت في يوم قريب عندما يفهم المسلمون قدرهم ويعرفوا وضعهم الدولي ويعرفوا قدر أنفسهم وبما تحمله أوطانهم وبلادهم وأرضهم وبحارهم وأنهارهم من خير عظيم لو نظمناه في خطة خمسية لارتفع مستوانا واستطعنا أن نمسك بزمام الأمر ويؤمند نقول: «وامتصاه» فنجد مليون معتصم يضع يده في يد صلاح الدين الأيوبي ويتقدمون إلى ساحة القتال وهم يرددون: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّكَ اللَّهُ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠]، ثم يردد الناس من ورائهم: دار ابن لقمان على حالها». [غزوة الأحزاب لعبيد ٨٤-٨٧].

خرافة مدنية القرن العشرين:

يقول أ. باشميل: «أية مدنية القرن العشرين هذه التي يتبجح هؤلاء المتعصبون وفروخهم بسموها وعلو روحها، ويجعلون منها مقياساً للعدل والرحمة والتمدن، وبمعيارها يُصدرون حكمهم بالقسوة والوحشية والهمجية على قرار حكم الإعدام الذي صدر ونُفذ في حق يهود بني قريظة.

أهي هذه المدنية التي - كما رأينا ورأى العالم - سمح أقطابها ومُحَامِلُها وسدنتها لأنفسهم أن يمسحوا من الوجود - سلاح وحشي رهيب - مئات الآلاف من النساء والشيوخ والأطفال العزل؟

أهي هذه المدينة التي سمح مُحامتها وسدنتها لطيارهم - في الحرب العالمية الثانية - أن يقتلوا تحت الأنقاض في ليلة واحدة أربعين ألف إنسان من المدنيين العُزَّل؟. ^(١) إلخ.

أهي هذه مدينة القرن العشرين التي بها يتشدد البغاوات من المحسوسين على الإسلام ويجعلونها مثلهم الأعلى ومرجعهم الأول في الحديث عن الإنسانية والمدينة وحقوق الإنسان، ويحتجون بأن إعدام ثمانمائة مقاتل من خونة يهود بني قريظة يتنافى مع روح مدنيّتهم هذه؟

أهذه هي مدينة القرن العشرين التي أباحت بقانون دمّ إنسان زنجي إذ حكمت عليه بالإعدام ونُفذ فيه هذا الحكم؛ لأنه سرق دولارين من إنسان أبيض ^(٢)، وحكمت بالإعدام على زنجي آخر لأنه (فقط) راود امرأة بيضاء عن نفسها ولم يرتكب الخطيئة؟

أهذه هي المدينة العالية التي يجعلها الخاقدون على الإسلام والمفتونون من المتسبين إليه، مقياساً أعلى للإنسانية والرحمة والعدل، توزن بميزان روحها أعمال أعظم وأعدل وأرحم رجل عرفه التاريخ محمد بن عبد الله ﷺ، ويصفون حكم الإعدام الذي أقره ونفذه في يهود بني قريظة بالقسوة والمجحية بحجة أنه يتنافى مع روح هذه المدينة، مدينة القرن العشرين إياها؟؟ ^(٣)

وبعد: لقد تعمّدنا في مناقشة المعارضين على حكم الإعدام الجماعي الصادر بحق يهود بني قريظة والنافذ فيهم.. تعمّدنا إغفال النصوص الشرعية والاحتجاج بها، ومناقشتهم في حدود مفهوم الأعراف والقوانين العصرية التي يقدّسونها؛ لأنهم لا يؤمنون بالإسلام الذي هو مصدر تلك الأحكام التي نُفذت في اليهود. فصار من غير المجدي محاولة إقناعهم بوجاهة ذلك الحكم وعدالته عن طريق الرجوع بهم إلى قواعد ونصوص الشريعة الإسلامية من آيات وأحاديث.

(١) عندما كنت في زيارة لألمانيا الغربية عام ١٣٨٢هـ / ١٩٦٢م، زرت مدينة هامبورج الشهيرة، وعندما كنا نتجول في أحد الأحياء الشهيرة من هذه المدينة قال لنا الدليل المرافق: إنه في ليلة واحدة قُتل من أهل هذه المدينة أربعون ألفاً بفعل الغارات الجوية التي شنتها طائرات الحلفاء بدون تمييز على هامبورج، وكم مثل هذه الأعمال الوحشية التي ارتكبتها الذين يتشددون بروح مدينة القرن العشرين المزعومة. [باشميل]

(٢) قبل ما يقرب من خمس سنوات حكمت محكمة أمريكية في الولايات المتحدة بالإعدام على الزنجي (جيمس ولسون) وجريمته (كما أعلنت المحكمة) أنه سرق دولارين إلّا ربّعاً من امرأة بيضاء.. انظر كتابنا [باشميل] (صراع مع الباطل ص ١١٧).

(٣) وأين هؤلاء الذين يريدون الطعن في الحكم الصادر والنافذ في ثمانمائة مقاتل من بني قريظة بحجة أنه يتسم بطابع الوحشية والانتقام، أين هؤلاء المتمدنون من فعلة ريتشارد (قلب الأسد) قائد الحملة الصليبية في فلسطين الذي أعدم ثلاثة آلاف أسير من المسلمين في فلسطين بعد أن أعطاهم الأمان وقطع على نفسه عهداً بحقن دماءهم؟! كما أثبت ذلك جوستاف لوبون في كتابه (حضارة العرب)؟.

فهذه النصوص والقواعد إنما يُناقش في حدودها من يؤمن بمصدرها ويرى نفسه مُلزماً بالرضوخ لها والاحتكام إليها.

وأعداء الإسلام هؤلاء وفروخهم من الذين يسرون على أصول قوانينهم في تشريعاتهم الوضعية إنما يهدفون بمحاولاتهم الطعن في الحكم الصادر بحق اليهود، انتقاص أصول هذه الشريعة الإسلامية الغراء؛ ولهذا لزم إبطال مزاعمهم ونقض مطاعنهم في حدود قانونهم وبمنطقهم ذاته.

حكم بني قريظة في شريعتهم:

وهناك أمر آخر مهم لابد من ذكره بهذه المناسبة، وهو أن الحكم الذي أصدره سعد بن معاذ رضي الله عنه على يهود بني قريظة، وأقره النبي ﷺ وقام بتنفيذه، قد جاء - تماماً - وفق الشريعة الموسوية عند اليهود أنفسهم كما في التوراة عندهم.

فقد نصّ الإصحاح العشرون في سفر التثنية من كتابهم المقدس، على أن لهم قتل كل الرجال من أعدائهم إذا ظفروا بهم، وامتلاك نسائهم وأطفالهم وكل ما يملكون.

وهذا هو نص الإصحاح العشرين من سفر التثنية: «وإن لم تسلمك أية قرية بل حاربتك، فحاصرها، وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف، وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما في المدينة، كل غنيمتها، فتغنمها لنفسك، وتأكل غنيمة أعدائك التي أعطاك الرب إلهك».

[سفر التثنية: ٢٠، ١٣-١٤].

وهذا النص الصريح في كتاب اليهود المقدس يجعل هؤلاء اليهود - بالتأكيد - يرون أن من حقهم تنفيذ حكم الإعدام فيمن وقع في أيديهم من أعدائهم الرجال، وسبي نسائهم وذريتهم، ومصادرة كل ممتلكاتهم.

وهذا يعني أن اليهود لو نجحوا في مؤامرتهم وتم لهم ولأحلافهم التغلب على المسلمين لما ترددوا لحظة في إبادة المحاربين منهم، وسبي نسائهم وذريتهم، ومصادرة أموالهم، تمشيًا مع حكم كتابهم المقدس الذي جاء صريحًا في سفر التثنية.

وهكذا جاءت العقوبة التي أنزلها المسلمون باليهود هي نفس العقوبة التي كان هؤلاء اليهود ينوون إنزالها بالمسلمين لو وقعوا في أيديهم.

فالحكم النازل باليهود إنما جاء - تماماً - وفقاً لشريعتهم، فهو إذن جزاءً وفاقاً.

ولهذا لم يبق - لا من الناحية الدينية ولا الوجدانية ولا القانونية - أي مجال للانتقاد في الحكم الصادر والنافذ بحق يهود بني قريظة.

وبالإضافة إلى كل ما أوردنا من حجج لا تقبل الجدل فإننا نقول لهؤلاء الطاعنين والمستبشعين لهذا الحكم: إنه مهما تقولون في صرامة هذا الحكم وقسوته، فإن أي واحد منكم لو كان مسؤولاً عسكرياً عن

سلامة أمته - وفي أي عصر من العصور - فتعرض هو وجيشه ووطنه وأمته لمثل ما تعرض له محمد ﷺ من خطر خيانة يهود بني قريظة وغدرهم بانقلابهم على المسلمين في ذلك الظرف، ذلك الغدر والانقلاب الذي جعل جيش المدينة - الذي كان اليهود جزءاً منه بموجب المعاهدة - يقع في أخطر مأزق يمر به في تاريخ حياته العسكرية.

حيث وصل هذا الجيش - بسبب خيانة بني قريظة - إلى درجة من الخطر كانت قاب قوسين أو أدنى من الإبادة لولا عناية الله التي أنقذت المسلمين بمعجزة. نعم نقول لهؤلاء المعترضين: لو أن واحداً منهم كان قائداً عسكرياً وتعرض هو وجيشه وأمته ووطنه لمثل ما تعرض له النبي القائد ﷺ من يهود بني قريظة، لما وسعه إلا أن ينزل بهم - على الأقل - ذلك الحكم الذي أنزله الرسول ﷺ بأولئك اليهود الخونة الغادرين.

دفاع مجيد:

لقد رأيت بحثاً أعجبني في الدفاع عن سعد بن معاذ ﷺ القاضي المحكم في بني قريظة لكاتب إسلامي فاضل هو الدكتور/ محمد رجب البيومي، فند فيه مزاعم المستشرقين، وأنحى باللوم على المنتسبين إلى الإسلام من القانونيين الذين تأثروا بوساوس المستشرقين. فقد نشرت مجلة الحج الغراء الصادرة بمكة المكرمة في عددها الثاني عشر من سنتها الثامنة عشرة مقالاً لهذا الكاتب الكريم تحت عنوان: (إنصاف سعد بن معاذ ﷺ).

ولأهمية هذا المقال فإننا سنتطلف منه للقراء أهم النقاط المتعلقة ببحثنا هذا.

قال د/ البيومي: «ليس من الغريب أن يندفع غلاة المستشرقين في تجريد سيد الأوس سعد بن معاذ ﷺ، حين أصدر حكمه العادل باستئصال بني قريظة، إذ خانوا الله ورسوله وتآمروا بالمسلمين، فحالفوا قريشاً على حرب محمد ﷺ، ناقضين عهودهم الوثيقة، ومعلنين دفائن أحقادهم الثائرة.

ويوم صدق الله وعده فرد الذين كفروا بغیظهم لم ينالوا خيراً، وحان أوان القصاص فارتضوا سعد بن معاذ ﷺ حكماً، فجزاهم بما اقترفوا من العقوق والغدر أعدل الجزاء.

ليس من الغريب أن يندفع غلاة المستشرقين في ذلك عن غرض جائر وهوى مريض، إنما الغريب حقاً أن يستمع إليهم بعض عقلائنا المسلمين من كبار رجال القانون، فيروا في حكم سعد ﷺ مغالاة كبيرة.

ولا أدري كيف يقولون ذلك وقد درسوا القوانين المعاصرة دراسة نافذة، وكان في مقدرتهم أن يطبقوها على قضية بني قريظة ليروا أن قوانين القرن العشرين لا تختلف في شيء عما أصدره سعد بن معاذ ﷺ.

ثم يقول د/ البيومي: ولكن أقوال ذوي الغرض من المستشرقين قد خدعت رجالنا عن عقولهم، فسوا ما يحفظون وتجاهلوا ما يعلمون.

ثم يكر د/ البيومي على تلك المطاعن، فيثبت بطلانها عن طريق المقارنة بين القوانين العصرية الوضعية وبين حكم سعد ﷺ على اليهود قائلاً: وسنضطر هنا إلى مخاطبتهم القانونية.

ثم يقول: لقد كان بين الرسول ﷺ وبين يهود بني قريظة معاهدة تحفظ حقوق الفريقين، وتقضي على كل فريق أن ينصر الآخر إذا واجه خطرًا في حرب.

ولكنهم (أي اليهود) تأمروا فانضموا إلى أعدائه وأوقعوه بين شقي الرحى في المدينة، مصطليًا بنار أعدائه المشركين من جهة واعتداء حلفائه اليهود في ساعة العسرة من جهة ثانية.

فاقتروا بذلك الغدر الشنيع ثلاث جرائم:

أولاً: رفع السلاح ضد سلطان المدينة مع الأجنبي المعتدي.

ثانياً: دس الدسائس لدى العدو ضد المسلمين.

ثالثاً: تسهيل دخول العدو للبلاد.

ثم يعقب د/ البيومي على إدانة اليهود بهذه الجرائم الثلاث فيقول:

وقانون العقوبات المصري - وهو أقرب قانون يعرفه من يؤخذون سعداً ﷺ من رجالنا القانونيين - يجعل الإعدام عقوبة كل جريمة من الجرائم الثلاث (التي ارتكبتها اليهود).^(١)

وينص على ذلك في المواد ٧٧، ٧٨، ٧٩، وهذه هي نصوصه على الترتيب:

(المادة ٧٧): يُعاقب بالإعدام كل مصري رفع السلاح على مصر أو التحقق على وجه يعمل في القوات المسلحة لدولة تحارب مصر.

(المادة ٧٨): كل مَنْ ألقى الدسائس إلى دولة أجنبية أو إلى أحد من مأموريها أو إلى أي شخص يعمل لمصلحتها، أو تخابرها أو معها بقصد استعدائه على مصر أو تمكينه من العدوان عليها يُعاقب بالإعدام، سواء تحقق الغرض أم لم يتحقق.

(المادة ٧٩): يُعاقب بالإعدام كل من سهّل دخول العدو إلى البلاد أو سلّمه مواقع أو سفناً أو طائرات مما يستعمل في الدفاع عن البلاد، أو نقل إليه أخباراً، أو أرشده، أو حرّض الجنود على الانضمام إليه، أو أثار الفتن والشائعات، أو نحو ذلك.^(٢)

(١) القانون المعمول به في مصر حتى الآن هو مزيج من القوانين الأجنبية الفرنسية والسويسرية والإيطالية والإنجليزية، ولم يكن هذا القانون يعتمد على الشريعة الإسلامية في أية ناحية من نواحيه كقاعدة يرجع إليها.. ينظر كتاب (حقيقة القومية العربية) للأستاذ المصري المشهور محمد الغزالي.

(٢) وبالرجوع إلى جميع القوانين الوضعية العصرية يتضح أنها جميعاً تتفق على هذه العقوبات في محاكماتها للمواطنين الخونة.

ثم يؤكد عدالة العقوبة النازلة بيهود بني قريظة - من وجهة نظر مدينة القرن العشرين - فيقول: فقانون القرن العشرين صريح في إدانة بني قريظة حيث ارتكبوا جميع ما تستحق جريمة واحدة منه الإعدام.

وسنعرض لخيانتهم بالتفصيل حين نوجز سيرة سعد رضي الله عنه؛ ليعلم القارئ المنصف، كم تجنّى عليه أعداء الإسلام إذ وصفوه بالوحشية والقسوة والغدر.

وكم تنكب رجالنا من القانونيين سبيل الإنصاف حين زعموا أن حكمه القضائي لا يوائم أحكام القرن العشرين، وقد فاتهم أن يحيطوا بالقضية من أطرافها ليروا شططهم البعيد.

أما الرجل (يعني سعد بن معاذ رضي الله عنه) فبطل صادق ومسلم صريح. إن هؤلاء الغادرين قد آسفوه بخيانتهم الأثيمة، فما راعوا إلا ولا ذمة، وكان سعد رضي الله عنه مع قومه من الأوس قد شفع لديهم - بادئ ذي بدء - ليرجعوا عن غدرهم الفاضح، فما راقبوا الله في حلف أو ميثاق حتى انكشفت الغمة فقبعوا في حصونهم يترقبون ما تتمخض عنه الحوادث.

وطبيعي أن يعجل المسلمون بعقاب هؤلاء الخونة عقاباً رادعاً، فاتجهوا إليهم على الفور وحاصروهم في ديارهم خمساً وعشرين ليلة أججت القلق والحسرة في ضلوعهم، فعرضوا شروطاً للجلاء كما فعل بنو قينقاع، وأملوا أن يتقبلها الرسول ﷺ بقبول حسن.

وقد اتجهت أنظارهم إلى حلفائهم من الأوس ليكونوا شفعاءهم لدى محمد ﷺ، ورسول الله ﷺ يدرك نفسيات قومه، فيضع الشيء في موضعه، إذ يختار سعد بن معاذ رضي الله عنه «حليف بني قريظة» ليكون فيصلاً قاطعاً ينزل الفريقان على رأيه.

وسعد رضي الله عنه قد قدر الموقف تقدير من شاهد كرويه ومازقه، وعرف النذر المستطيرة التي تراءت في الأفق، فأوشكت بالعصبة المؤمنة، لولا عناية الله التي أثارت الريح.

ولقد همّ أصحابه يزيّنون له الإحسان في مواليه، ويحنحون به إلى السلام والفداء، فماذا فعل عند ذاك؟ لقد حكم (سعد رضي الله عنه) بأن تقتل الرجال، وتقسّم الأموال، وتسبى الذراري والنساء، وأمر الرسول ﷺ بتنفيذ الحكم.

ولاقي اليهود أسوأ مصير على أفضح خيانة توجّه إلى معاهد مسلم ^(١) يأمن حلفاءه، فيأتيه الروع من مأمنه الحصين.

(١) بل إلى مواطن آمن كان ينتظر النصر من هؤلاء الذين كانوا (يوم ذاك) جزءاً من الوطن الذي خانوه ومن الأمة التي غدروا بها؛ لأن هؤلاء اليهود كانوا (أمة مع المسلمين) بموجب المعاهدة المعقودة بين الفريقين، كما فصلنا ذلك فيما مضى من هذا الكتاب.

التَّقْوُلُ عَلَى الْإِسْلَامِ:

ثم يقول د/ رجب البيومي: وقد كانت صرامة هذه العقوبة مدعاة للتقول على الإسلام دون عدالة وإنصاف، فالمسلمون لم يتجنوا على بني قريظة باستئصالهم المبيد؛ لأنهم متهمون بالخيانة العظمى، وقد ثبتت إدانتهم ثبوتاً قامت دلائله وفدحت نتائجه، وهذه الخيانة الخطيرة ليس لها في جميع الشرائع غير الإعدام السريع.

مقارنة بين قبائل اليهود الثلاث:

ثم ينفي الكاتب استحقاق بني قريظة لأية شفقة فيقول: ولم يكن اليهود أسرى حرب فيميل بهم إلى الشفقة، ولكنهم شر من الأعداء، إذ يبيتون لأناس يأمنونهم، ويخصونهم بحقوق الجار (والمواطنة) وواجبات الذمام، وموقفهم هنا يختلف اختلافاً واضحاً عن موقف بني قينقاع وبني النضير. فالأولون قد أبدوا البغضاء من أفواههم، وأشاعوا الريب والشكوك، ورأوا في الدعاية المغرضة سلاحاً لا يقل.

والآخرون (أي بنو النضير) قد ائتمروا على قتل الرسول ﷺ وتحالفوا مع بعض المنافقين على المناجزة دون أن تتيح لهم الفرصة طريقاً يصلون منه إلى التنفيذ. وهؤلاء وأولئك أهون خطباً من الذين سلّوا السيوف ووقفوا في صفوف العدو، وأوقعوا الهلع في قلوب يحيط بها الروع من كل ناحية، فتعادل الكفتين بينهما طيش لا يقره إنصاف.

وقد جلا بنو قينقاع وبنو النضير عن المدينة، فكانوا مثار الفلق والفتنة ومبعث الضيق للمسلمين، فهم الذين حزبوا الأحزاب وجمعوا القبائل مع المشركين ليوم الخندق، فأعطوا بمؤامراتهم المزعجة محمداً ﷺ درساً حاسماً يحتم استئصال شأفتهم وتتبع أفاعيهم في كل مكن، ليطفئ لهباً يستعر إذا هبت عليه الريح. ويختتم د/ محمد رجب البيومي دفاعه عن الحكم الصادر والنافذ بحق يهود بني قريظة فيقول: وقد تحقق الدرس مبدئياً في يهود بني قريظة وظهرت نتائجه الحاسمة في خير، حيث تعرّض اليهود على يد محمد ﷺ لزلزال رهيب. اهـ.

دفاع الدكتور محمد علي:

ومن الذين تعرضوا لشبه الوحشية والقسوة التي أراد خصوم الإسلام وفروخهم إصاقها بحكم الإعدام الصادر بحق بني قريظة مولانا محمد علي، فقد تناول موضوع نهاية بني قريظة في كتابه الشهير (حياة محمد ﷺ ورسالاته) بشيء من التحليل المنطقي، فرد (في اختصار) كل الاعتراضات التي جاءت بشأن ذلك الحكم الصارم.

فقد جاء في كتابه المذكور (أثناء حديثه عن مقتل بني قريظة): ويتعين علينا أن لا ننسى هنا أن الإسلام كان يمر - آن ذاك - بمرحلة حرجة جداً من مراحل حياته، كانت هي فترة معركة أُحُد، عندما تألب الأعداء من كل صوب وشهروا السلاح لتسديد ضربة قاضية إلى الإسلام.

كان الهجوم الذي يشن من الخارج، خطراً من غير ريب، ولكن الانفجار الداخلي المرتقب في كل لحظة كان أشد من ذلك خطراً، ويقول المثل: الإنذار المسبق يساوي التسليح المسبق، وكان هذا ممكناً في حال هجوم خارجي، لما يتيح للمسلمين من وقت يستعدون خلاله لمواجهة الوضع.

أما الانفجار غير المرتقب في المدينة فخليق به أن يكون طعنة قاتلة تُوجّه إلى فؤاد الإسلام نفسه. وكان بنو النضير على صلات ودية مع أعداء الإسلام، ومثل بنو النضير دوراً هاماً في معركة الأحزاب، فبالإضافة إلى تحريضهم بيوتات قريش، راحوا يطوفون في الصحراء ملّمين بمضارب البدو، يشيرونهم على الإسلام.

ثم يخلص مولانا (محمد علي) إلى الحديث عن جريمة الخيانة العظمى التي ارتكبتها بنو قريظة فيقول: وتأثر بنو قريظة أيضاً، وكان موقفهم من الإسلام حتى ذلك الحين - أي حتى تحزيب الأحزاب - ودنياً^(١).. تأثروا بهذه الحملة الدعاوية.

لقد رفض بنو قريظة أول الأمر أن يشاركوا ضد الإسلام، ولكنهم تلقوا تأكيدات تفيد أن المسلمين كانوا في وضع يائس، لن يتمكنوا معه من البقاء، إنهم لن يستطيعوا بأية حال الصمود في وجه الأعداء الضخمة التي نجمت مثل نبات الفطر (بضم أوله وسكون ثانيه، هو النبات الأولي الكثير الذي أول ما تنفطر عنه الأرض، والفطر أيضاً جنس من الكم أبيض عظام) في كل ناحية للقضاء على الإسلام. (وهذا الذي يجعل جريمة بني قريظة تبلغ نهايتها في الشناعة والخسة والوضاعة؛ لأنهم بدلاً من أن يخفوا من بلواء حلفائهم ومواطنيهم الذين وقعوا في ذلك المأزق المميت سارعوا إلى الإجهاز عليهم فانضموا إلى أعدائهم، وهذا أقطع ما شهدته سجلات النكث والغدر والخيانة، ومع هذا يأتي من يزعم أن الحكم النافذ في بني قريظة قد اتسم بطابع الوحشية المنافية لروح مدنية القرن العشرين).

ولقد قيل لبني قريظة أن قد أن لهم أن يختاروا بين الانحياز إلى المسلمين وبين التعاون مع الأحزاب، وهكذا أُنْعِمَ بنو قريظة بالانضمام إلى صف سائر القبائل المعادية للإسلام، فتقضوا عهدهم الذي أعطوه للمسلمين وتحالفوا مع الأحزاب، واعدين إياهم بأن يُسَدِّدُوا إليهم العون في النزاع المقبل - معركة الأحزاب.

(١) الثابت (كما في صحيح البخاري) أن يهود بني قريظة قد حاربوا النبي ﷺ مع إخوانهم بني النضير عندما حاولوا اغتيال النبي ﷺ، ولكن الرسول ﷺ (لظروف خاصة) سمح لبني قريظة بالبقاء وأجل إخوانهم بني النضير.

والحق أن الميثاق الجديد برغم أنه عُقد سرًّا، لم يبق حرقاً ميتاً، فقد شارك بنو قريظة عملياً في القتال، وإلى هذا يشير القرآن الكريم بقوله: ﴿وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَافِيهِمْ وَقَدَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرَّعْبَ فِرْقًا تَفْتَلُوتُ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾ [الأحزاب].

والتاريخ أيضاً يشهد على اشتراكهم في المعركة، بل لقد يبتوا خطة للهجوم على نساء المسلمين أيضاً، وكان في خيانة بني قريظة - وقد برز في الجانب الآخر في الخندق أربعة وعشرون ألف مقاتل (لم نر في شيء من مصادر التاريخ أن جيوش الأحزاب قد بلغت هذا العدد) متحرقين لسحق الإسلام، وانهمك المنافقون في إنزال الأذى بالمسلمين في الداخل - مما زاد في متاعب الرسول ﷺ وأصحابه إلى حد بعيد..

وهكذا رُئي، عند انقضاء معركة الأحزاب، أن من المناسب أن تنزل ببني قريظة العقوبة التي يستحقون، والتي قد تحول دون تكرار مثل هذه الخيانة الغادرة في المستقبل.

ومن ثم ألقى المسلمون الحصار على معقلهم، فاستسلموا بعد مقاومة قصيرة، وقد اختار بنو قريظة بأنفسهم سعد بن معاذ ؓ (وكان فيما مضى حليفهم) حَكَمًا يَعيِّن العقوبة التي يستحقون، ولو أنهم فَوَّضُوا أمرهم إلى الرسول ﷺ إذن لعاملهم - في أغلب الظن - كما عامل أبناء عموماتهم بني قينقاع وبني النضير، لقد كان خليقاً به أن يحكم عليهم - في أسوأ الأحوال - بالنفي من المدينة. (هذا من المؤلف ظن أثبت عدم صوابه قول النبي ﷺ لسعد بعد صدور الحكم: حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سماوات). ولكن سعدًا ؓ، الحكم الذي اصطفوه هم، كان ينظر إلى غدرهم الخطر، في لحظة الحرج، باشمئزاز بالغ، لقد ارتأى أن عَظَمَ الأذى الذي أنزلوه بالمسلمين يقتضي عقوبة نموذجية بدونها لن تحظى المواثيق - في المستقبل - إلا باحترام ضئيل، وقد يعتبرها أي من الفريقين المعنيين عندئذ قصاصات ورق لا قيمة لها. ومن هنا انتهى إلى هذا القرار، أن جزاءهم العادل يجب أن لا يكون - بأية حال - أخف من تلك التي قضى بها كتابهم المقدس (العهد القديم) في حق العدو المهزوم، وهذا ما يقضي به (العهد القديم) في هذا الصدد.

وبعد أن يشير مولانا محمد علي إلى النص الثابت في الإصحاح العشرين من كتابهم بهذا الصدد، يقول: «وهكذا حكم سعد ؓ، وفقاً للشريعة الموسوية، بقتل ذكور بني قريظة، وبسبي نساءهم وأطفالهم، وبمصادرة ممتلكاتهم».

ومهما بدت هذه العقوبة قاسية، فقد كانت على وجه الضبط، العقوبة التي كان اليهود يتزولونها - تبعاً لتشريع كتابهم المقدس بالمغلوين من أعدائهم.

وإلى هذا فإن جريمة الغدر الشائن التي اتهم بها بنو قريظة خليق بها - في مثل تلك الظروف - أن لا تُجَارَى بأياً عقوبة أخف، حتى في عصر المدنية هذا.. كان القاضي من اختيارهم، وكان الحكم منطبقاً أشد الانطباق مع شريعتهم المقدسة نفسها، وفوق ذلك أدبنا بخيانة من نوع خطير».

وهنا يخاطب المؤلف الفاضل، الطاعنين في حكم الإعدام الصادر بحق بني قريظة فيقول لهم: فهل من المنطق في شيء أن يُنتقد الرسول ﷺ لهذا السبب.. إن كل اعتراض على قسوة هذه العقوبة، هو اعتراض على الشريعة الموسوية.. إنه في الواقع انتقاد لا شعوري لتلك الشريعة، وتسليم بأن شريعة أكثر إنسانية يجب أن تحل محلها، وأياً مقارنة بالشريعة الإسلامية في هذا الصدد، خليق بها أن تكشف - في وضوح بالغ - أي قانون رقيق عطوف رحيم قدمه الإسلام إلى الناس. اهـ. [حياة محمد ورسائله ص ١٧٥].

حديث الشيخ الغزالي:

يقول الشيخ الغزالي: «أجل.. هو القتل، وإنما تقع تبعات الحكم به على من تعرّض له بسوء صنيعه، وبما أسلف من نيات خبيثة لم يسعفها الحظ ففتحقق، ولو قد تحققت لكان ألوف المسلمين هلكى تحت أقدام الأحزاب المنسابة من كل ناحية يجرضهم ويؤازرهم أولئك اليهود.

وربما كانت مغامرات نفر من طلاب الزعامة سبباً في هذه الكارثة التي حلت ببني قريظة، ولو أن حييَّ بن أخطب وأضرابه سكنوا في جوار الإسلام وعاشوا على ما أوتوا من مغانم، ما تعرّضوا ولا تعرّض قومهم لهذا القصاص الخطير».

ثم يتحدث الأستاذ الغزالي عن ظاهرة لا تزال في كل عصر وزمان، وهي أن الشعوب (فقط) هي التي تدفع الثمن باهظاً لمغامرات سادتها المتهوسين المصايين بمرض حب السيطرة والتحكم، فيقول: «لكن الشعوب تدفع من دمها ثمناً فادحاً لأخطاء قادتها، وفي عصرنا هذا دفع الروس والألمان وغيرهم من الشعوب أثماً باهظاً لأثرة الساسة المخدوعين^(١).

ولذلك ينعى القرآن على أولئك الرؤساء مطامعهم ومظالمهم التي يحملها غيرهم قبلهم: ﴿أَلَمْ تَر إِلَى الَّذِينَ بَدَلُوا وَعَمَتَ اللَّهُ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ۖ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَيَنسَوْنَ أَلْقَارَهُمْ﴾ [إبراهيم^(٢)].

[فقه السيرة للغزالي ٣٢٦-٣٢٧]. [غزوة بني قريظة لباشمیل ٢٥٨-٢٥٩].

(١) وفي هذه الأيام بالذات تُراق الدماء العربية المسلمة بغزارة رخيصة لا لتحرير وطن من غازٍ دخيل محتل، وإنما لإشباع شهوات فئة من القادة مصايين بوباء السيطرة والتسلط على غيرهم من إخوانهم، فصار لذلك العربي يقتل أخاه العربي، فأزهقت على مذابح أطماع هؤلاء الزعماء المتهوسين أرواح عشرات الآلاف من العرب، وذهبت دماؤهم هدراً، وهكذا فالثمن (دائماً) لطيش الزعماء وغرورهم، إنما تدفعه الشعوب من دم أبنائها.

(٢) ما أشد ما تنطبق هذه الآية على ذلك الذي دفع بخيرة جنده وصفوة ضباطه ليموتوا بالآلاف (في حرب خاسرة ظالمة) كما يموت المعتادي الأثيم الباغي، وما أسوأ المصير الذي يؤول إليه المسلم، إذ يقتله مسلم وهو يصد عدوانه عن عرضه وأرضه.

حديث ل/ خطاب:

ويقول ل/ خطاب: «القصاص العادل الذي أصاب بني قريظة بعد استسلامهم يُقرّه كل إنسان واقعي سليم التفكير منصفًا.

لقد طعن يهود المسلمين في أخرج وقت من أوقات محتهم، ولو لم يكن هناك عهد بينهم وبين المسلمين لكان الخطب ولوجدنا بعض العذر لهم، ولكن أي عذر لهم وقد خانوا العهد الذي كان بينهم وبين المسلمين في مثل تلك الظروف العصبية؟

وأحب أن أتساءل: لو نجح الأحزاب في غزوة الخندق، فماذا كانوا يفعلون بالمسلمين؟ ألم تكن عاقبة المسلمين الإبادة والتمثيل؟

فلماذا لا يبیدون الذين حاولوا معاونة أعدائهم على إبادتهم؟

لقد أفسح المسلمون المجال أمام بني قينقاع وبني النضير من يهود للجلأ إلى (خير) وإلى ضواحي الشام، فماذا كانت النتيجة؟

أثار يهود الذي عفا عنهم النبي ﷺ الأحزاب وحشدهم أمام خندق المدينة للقضاء على المسلمين. ومع ذلك فالموقف جدٌ مختلف بين يهود الذين خانوا عهدهم في غزوة الخندق وبين يهود قريظة، إذ أن خيانة هؤلاء ونكثهم عهدهم كان في أخرج الأوقات وأشدّها خطورة على مستقبل الإسلام والمسلمين. فهل يبقى المسلمون سلماً على بني قريظة أيضًا ليقوموا بدور أسلافهم بني قينقاع وبني النضير؟ لقد كان بإمكان يهود قريظة أن يتخلصوا من القتل لو أعلنوا إسلامهم كما فعل ثلاثة رجال منهم، فنجوا بحياتهم وأموالهم.

ولم يقض المسلمون بالقتل إلا على الرجال الذين قاتلوهم (فعلاً) بعد أن خانوا عهدهم وعرضوا المسلمين للإبادة، أما الأطفال والنساء فلم يصابوا بأذى، كما أن الذين ثبتوا على عهدهم من يهود لم يصابوا بسوء.

والمرأة الوحيدة التي قُتلت من بني قريظة هي التي قتلت مسلماً بقذفه بالرحى من فوق سطحها، وإنما كان قتلها على جريمتها هذه لا بسبب آخر.

لقد كان قصاص المسلمين من يهود ومن غيرهم ضرورياً عادلاً.

[الرسول القائد ﷺ لخطاب ٢٥٩-٢٦١].

رأي إنكليزي منصف:

يقول أ/ باشميل: «وإذا كانت جمهرة كُتّاب الغرب قد جانبت الصواب، وحادت عن جادة الإنصاف عندما وصفت الحكم الصادر والنافذ بحق بني قريظة بالوحشية والنسوة، فإن هؤلاء الكُتّاب لم يخلوا من

متصفين قالوا كلمة الحق، وأبوا الانجراف في تيار الهوى والعاطفة، فنفوا (بتجرد ونزاهة) أن يكون في ذلك الحكم أي شيء من الوحشية والهمجية، ومن هؤلاء المؤلف الإنكليزي الكبير الدكتور (مونتجمري وات)، فقد جاء في كتابه (محمد نبي ورجل دولة) ص ١٧١ وما بعدها - ما يلي: «لقد انتقد بعض الأوربيين الحكم الصادر بحق بني قريظة ووصفوه بالهمجية، وقد اندهش بعض معاصري محمد ﷺ لعدم اكترائه بالعواقب التي قد تنتج عن قتل بني قريظة.. إلا أن عمل هذه القبيلة أثناء محاصرة المدينة كان يعتبر ناقضاً للمعاهدة المبرمة مع محمد ﷺ».

ثم ينفي الدكتور (مونتجمري) ما ألصقه بعض المستشرقين بالنبي ﷺ من اتهامات باطلة، فيقول: ولا داعي للافتراض بأن محمداً ﷺ قد ضغط على سعد بن معاذ ﷺ [لئلا] تنزل هذه العقوبة ببني قريظة، فإن رجلاً بعيد النظر كسعد ﷺ لا بد أنه أدرك أن طغيان الولاء القبلي على الولاء الإسلامي سيجدد المعارك الدموية التي جاؤوا (أي الأوس والخزرج) بمحمد ﷺ لينقذهم منها، ويقال: إنه عندما مثل (سعد ﷺ) أمام محمد ﷺ لينقذ حكمه أشار سعد ﷺ إلى أن قرب نهايته تحت عليه أولاً القيام بواجبه تجاه ربه والجماعة الإسلامية حتى على حساب الأحلاف القديمة».

ثم يشير الكاتب الإنكليزي إلى حكمة الرسول ﷺ في اختيار حليف اليهود (سعد بن معاذ ﷺ) ليحكم فيهم، ويستدل من ذلك على بُعد النبي ﷺ عن الديكتاتورية التي اتهم بها خصومه فيقول: «إن تعيين سعد بن معاذ ﷺ من قبل محمد ﷺ لم يكن يقصد به التستر وراء سلطة ديكتاتورية، لم يكن محمد ﷺ يملكها في ذلك الوقت، بل كان محاولة لمعالجة مشكلة عويصة بأحصف وأحذق طريقة ممكنة».

ثم يؤكد الدكتور مونتجمري بأن الحكم النافذ في حق بني قريظة لم يُنفذ لأنهم يهود، بل لأنهم خونة ارتكبوا الخيانة العظمى فيقول: «لم تبق قبيلة يهودية ذات أهمية بالمدينة بعد القضاء على بني قريظة، بل كانت هناك بعض المجموعات الصغيرة.. وتشير بعض الروايات إلى أن أحد أثرياء اليهود قد اشترى بعض نساء وأطفال بني قريظة، ولا شك أن اليهود الذين تخلّفوا في المدينة كانوا على جانب كبير من الحذر، فلم يمتنعوا عن بعض النشاطات المعادية فحسب، بل حتى عن بعض النشاطات الاجتماعية، غير أن عواطفهم كانت بلا شك مع إخوانهم اليهود في غزوة خيبر».

إن استمرار وجود بعض اليهود في المدينة يمكن أن يعتبر دليلاً ضد وجهة نظر بعض العلماء الأوربيين التي تقول: إن محمداً ﷺ انتهج في السنة الثانية من الهجرة سياسة إبادة جميع يهود المدينة لمجرد كونهم يهوداً، وأن هذه السياسة أخذت تزداد عنفًا، ثم يقول الدكتور (مونتجمري): «إلا أن محمداً ﷺ لم يكن من طبيعته سلوك مثل هذه السياسة، فقد كان يتمتع بنظرة معتدلة لأسس المشاكل المعاصرة ولسياسة طويلة الأمد يكوّن على ضوءها سياسته بموجب العوامل، أما بالنسبة لهجومه على القبيلتين

اليهوديتين (أي: بنو النضير وبنو قريظة) فقد كانت مجرد فرصة مواتية، غير أنه كانت هناك بعض الأسباب العميقة، فقد كان اليهود من جانبهم يحاولون زعزعة المجتمع الإسلامي بانتقاداتهم الموجهة ضد الوحي القرآني، كما أنهم كانوا يمنحون تأييدهم السياسي لأعداء محمد ﷺ ومناوئيه من المنافقين، وقد سمح لهم محمد ﷺ (مع هذا) بالعيش في المدينة دون أن يمسه منه أي أذى.. اهـ [ترجمة الأستاذ أحمد سالم بالعمش ص ١٧١ وما بعدها]. [غزوة بني قريظة لباشميل ٢٦٠-٢٦٢].

ويقول الشيخ عبيد: «الإنسان العادل لا يميل مع الهوى ولا يحابي غيره؛ لأن الحق أحق أن يتبع، والمعروف عن الغرب أن كُتَّابه يغمضون عيونهم عن عيوب اليهود ويضخمون كل صغيرة تقع من المسلمين، وهذا بلا شك ظلم وعدم إنصاف، لكنك دائماً تجد في وسط الظلام بريق ضوء لشخص ينصف الحقيقة من هؤلاء الناس، ونقف أمام شخصية قالت كلمة الحق لأنه تجرد عن الهوى واتسم بالنزاهة فأنصف الحقيقة إنه الكاتب الإنجليزي الدكتور «مونتجمري وات» حيث ذكر في كتابه «محمد نبي ورجل دولة»، ما سبق إيراده.

هذا هو رجل منصف من الغرب لا يدين بالإسلام، ومع ذلك كان النبي ﷺ يعاملهم بالحلم والرفق؛ لأن هذا هو أساس دينه فهو المبعوث رحمة للعالمين والذي قال الله له: ﴿فَمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِنْ لَمْ يَكُنْ لَكَ قَلْبٌ غَلِيظٌ لَافْتَضُوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥١﴾﴾ [آل عمران].

لقد كان المد الإسلامي داخل المجتمع اليهودي أقوى من كل ما يقوم به اليهود من مناورات ووسائل، لقد تكشف للرأي العام حقيقة أمرهم وصبر الإسلام عليهم وأنهم كانوا دائماً يثيرون الجدل المتعنت مع المسلمين حول ما جاء من نصوص تشريعية في القرآن الكريم، ولما باء سعيهم بالفشل في هذا الميدان ساءهم جداً أن تكون حصيلة صراعهم العقائدي مع دعوة الإسلام تلك الهزيمة المحطمة لأمالهم، فلجأوا إلى الإشاعات باعتبارها حرباً نفسية عنيفة، حتى إنهم في غزوة بدر أشاعوا بأن النبي ﷺ قد قُتل وأن جيش مكة زاحف بقيادة أبي جهل لاحتلال المدينة، وكانت هناك حملات دعائية واسعة من الأراجيف والتشويش لتحطيم معنويات المسلمين وإشاعة روح التخاذل والتفكك والفرع بينهم، وقد كانت هذه الأراجيف لها الفعل السيء في نفوس بعض المسلمين حيث كان المنافقون يؤازرونهم.

إذاً هناك حقد أعمى وحرص على تقويض معالم الدعوة الإسلامية والقضاء على حامل لوائها، ومع كل هذا فقد كان النبي ﷺ وهو الحاكم العام لم يقم بفرض حظر التجول على اليهود، ولم يسن قوانين (بأحكام عرفية) وكان هذا حقه الطبيعي، ولم يثبت أنه اتخذ ضدهم أي إجراء تأديبي مع علمه بما يقومون به من حرب نفسية وعدائية سلاحهم الإشاعات ونشرها بين الناس، ومع ذلك فقد كان النبي ﷺ وهو

الحاكم العام السيد المطلق لمنطقة يثرب وما حولها يتعامل معهم بلطف، ولم يحدث في أي يوم من الأيام أن تحرش بهم أو رد عليهم بمثل أعمالهم؛ لأن أساس دينه يقول له: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيُكْفِرْ﴾ [الكهف: ٢٩].

والدين الإسلامي تقوم دعوته على السباحة وعدم إكراه أحد في الدخول فيه والدليل من قول الله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

بل هناك توجيه إلهي كذلك أن المسلم عليه أن يستقبل الكافر بسباحة ورفق وأن يفسح له في بيته ويضفي عليه الأمن والأمان لا يروعه ولا يزعجه وإنما حسن الخلق والتسامح والرفق يقول ربنا في هذا: ﴿وَإِن أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ طَلِّعْهُ مَأْمَنَهُ﴾ [التوبة: ٦].

إذا نقف أمام الذي حدث لليهود بعد حصارهم، ونقول ما علمنا ربنا في قوله: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٥١] وقوله كذلك: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦].

ومن هنا فإننا نقول لكل مسلم وهو يناقش الحكم الصادر في حق يهود بني قريظة: إنه حكم عادل للأسباب الآتية:

- (١) لأن القاضي سعد بن معاذ رضي الله عنه من حلفاء اليهود.
- (٢) لأنه يتفق مع منطوق شريعتهم وهو الأهم.
- (٣) لأن النبي محمدًا ﷺ لا يرضى بظلم ولا يقره ولا يصدر أي حكم منه في مجلسه إلا بما يرضي الله لأنه مبلغ وحيه: ﴿وَمَا يَطَّقُ عَنِ أَمْوَى (٢) إِنَّهُ هُوَ الْوَاحِيُ يُوحِي (١)﴾ [النجم].
- لذلك كان تعقيبه ﷺ على حكم سعد رضي الله عنه: «لَقَدْ حَكَمْتَ فِيهِمْ بِحُكْمِ اللَّهِ ﷻ مِنْ فَوْقِ سَبْعَةِ أَرْقَعَةٍ (سماوات، الواحدة: رقع)». [غزوة الأحزاب لعبيد ٨٠-٨٤].

نظرة في الحكم:

يقول الشيخ أبو زهرة: «لا شك أن الحكم شديد، ولكنه عادل، والنظر لا من ناحية أنه عادل، ولكن أما كان موضع للتخفيف، ونقول في ذلك:

إنهم مقاتلون، واستمرت لهم صفة المقاتلين إلى آخر لحظة، وعلي بن أبي طالب رضي الله عنه، عندما تقدم لهم خاطبهم على أنهم مقاتلون، وقال ﷺ وهو يهاجمهم: لأذوقن ما ذاق حمزة، ولأفتحن حصنهم، فلما رأوا العزيمة في علي ومعه الزبير، وأنهم مغلوبون لا محالة، وطلبوا أن ينزلوا على حكم سعد بن معاذ رضي الله عنه منهم

ارتضوا ما ينفذ فيهم قبل أن ينزل الحكم فيهم، فهم الذين نفذوا الحكم فيهم إذ ارتضوا المحكم فيهم، ومن المقررات القانونية أن من ارتضى محكمين ليحكموا فيه، فقد فوض لهم، ولهم بهذا التفويض أن يحكموا بما يرونه عدلاً، ولقد حكم، وهو الذي ذهب إليهم ليحول بينهم وبين تنفيذ نقض الميثاق فردوه ردّاً نكراً، وعرف أنهم يريدون اقتلاع الإسلام، وقتل أهله.

ولقد خضع المدبرون منهم لحكمه، وأدركوا أنه بما قدمت أيديهم، حتى لقد روي أن حبي بن أخطب عندما قدم للقصاص قال لرسول الله ﷺ: **أَمَا وَاللَّهِ مَا لُمْتُ نَفْسِي فِي عَدَاوَتِكَ، وَلَكِنَّهُ مَنْ يَحْذُلِ اللَّهَ يَحْذُلْهُ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ فَقَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّهُ لَا بَأْسَ بِأَمْرِ اللَّهِ كِتَابٌ وَقَدَرٌ وَمَلَحَمَةٌ كَتَبَهَا اللَّهُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ، ثُمَّ جَلَسَ فَضَرَبَتْ عُنُقُهُ.**

وهكذا كانوا يحسون بأن ما نزل بهم قصاص، وما للناس يقولون: كان على النبي ﷺ أن يشفق عليهم، ومع ذلك إذا لم يقتل رجالهم، فماذا يصنع معهم، أعفو عنهم، ولو تمكنوا لقتلوه وقتلوا الإسلام، وشدروا أهل المدينة، إن العفو عن الجاني ظلم في ذاته، أم يخرجهم من أرضهم ويجردهم من أموالهم، وذلك لا يخلو من عفو، وقد قلنا: إنه في هذا المقام ظلم، ثم ماذا يكون إذا خرجوا، وفيهم أكثر من سبعمائة مقاتل.

ألا يكونون حرباً عليه، ويتجمعوا يؤلبون يهود الجزيرة العربية، ويكون قد أشفق عليهم لينقضوا عليه إن واتهم الفرصة، كمن يشفق على اللصوص ليجمعوا أمرهم، ويستلبوه ما يعتز به، ويأخذوا ما عنده.

إنه لم يكن إلا القتل، كفاء ما صنعوا، وهم الذين قتلوا أنفسهم بما دبروا وبما فعلوا.

قد يقال: إنهم قد صاروا أسرى، والأسرى لا يقتلون، ونقول في الجواب عن ذلك:

إن المسلمين والنبي ﷺ لم يشدوا الوثاق؛ لأنهم منهيون عن ذلك بحكم آية الأسرى إذ يقول ﷺ: **﴿مَا كَانَتْ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى حَتَّى يُشْرِكَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَصَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾** [الأنفال].

فما كان للنبي ﷺ أن يشد الوثاق وهو لم يشخن فيهم جراحاً، ولم ينل منهم نيلاً، بل إنهم هم الذين ارتضوا حكماً معيناً، والقتل من جانب المسلمين قائم، لم تعد السيوف إلى أجفانها ولا القلوب إلى جنوبها. بل إن قاتلهم امتداد لقتال الأحزاب الذين مالوهم لم يتنه، وإذا كان المشركون قد ألقى الله في قلوبهم الرعب، وفروا، فأولئك قد بقوا، وكان حقاً عليهم أن يقاتلوا فما قاتلوا.

وقد يقول قائل: إن النبيين رحماء، ونقول لهم: إن العدالة رحمة والقصاص حياة، ورحمة الإسلام دفع الظلم، وإقلاعه من أساسه، والنبي ﷺ قال: أنا نبي الرحمة، وأنا نبي الملحمة، والله ﷻ عزيز حكيم.

[خاتم النبيين ﷺ لأبي زهرة ٢/ ٨٠٢-٨٠٣].

الجزء من جنس العمل:

يقول أ/ كولن: «كان بنو قريظة قد خانوا المسلمين - ولا سيما في أثناء معركة الخندق - وأرادوا طعنهم من الخلف، وأرسلوا من يتجسس لهم حول حصن النساء لكي يقوموا بالهجوم عليه، ولكنهم لم يجدوا الفرصة المواتية لذلك، هذا مع العلم أنهم كانوا قد اتفقوا وتعاهدوا مع رسول الله ﷺ، ولكنهم نكثوا العهد وأعلنوا الحرب على المسلمين.

ولم يقف ذنبهم عند هذا الحد، بل فتحوا قلاعهم وحصونهم لاستقبال أعداء المسلمين - مثل حيي بن أخطب - الذين كان من المبعدين السياسيين من قبل المسلمين، مع أن مثل هذا التصرف كان يعد انتهاكاً للعهد.

بالرغم من كل هذا فلو اعتذروا للرسول ﷺ عندما أقبل إليهم وطلبوا منه العفو لكان من الممكن أن يصفح الرسول ﷺ عنهم؛ ذلك لأنه كان يميل على الدوام إلى التعايش الجيد معهم، غير أنهم سلكوا سلوكاً معادياً للمسلمين وللرسول ﷺ، فقد عشعش السوء في سويداء قلوبهم، وعندما أسقط في أيديهم استسلموا». [النور الخالد محمد ﷺ لكون ١٠٨/٢].

ويقول أ/ دويدار: «هذه قصة بني قريظة كما رواها التاريخ، فهل فيها ما يعاب على رسول الله ﷺ؟ لقد كانت مذبحة عظيمة حقاً، قضى فيها على قبيلة كاملة من اليهود، ولكن هذه المذبحة نفسها كانت من نصيب المسلمين، لو تم ما أرادت الأحزاب من القضاء على محمد ﷺ وأصحابه، فهو الجزء من جنس العمل إذن، وهو الجزء الذي يحكم به الدين، ويحكم به العقل، ويحكم به القانون قديمه وحديثه.

يقول المؤرخ بوهلي: «والحقيقة أنه لو فكر يهود المدينة في الأمر لوجدوا أن محمداً ما فعل شيئاً - أكثر أو أقل - من تنفيذ التعليمات التي وضعها قومهم في الإصحاح العشرين من تشية سفر الاشترع.

ويقول د/ هيكل: «وفي رأينا أن دم بني قريظة معلق في عنق حيي بن أخطب، وإن كان قد قُتل معهم، فهو قد حنث في العهد الذي عاهد قومه من بني النضير حين أجلاهم محمد ﷺ عن المدينة ولم يقتل منهم بعد النزول على حكمه أحداً، وهو بتأليهه قريشاً وغطفاناً وتحزبه العرب كلها لقتال محمد ﷺ، قد جَسَمَ العداوة بين اليهود والمسلمين، وجعل هؤلاء يعتقدون أن بني إسرائيل لا تطيب نفوسهم إلا باستئصال محمد ﷺ وأصحابه ﷺ، وهو الذي حمل بني قريظة من بعد ذلك على نقض عهدها والخروج من حيادها، ولو أنها بقيت عليه لما أصابها من الشر شيء، وهو الذي دخل حصن بني قريظة بعد ارتحال الأحزاب ودعاهم لمواجهة المسلمين والدفاع عن أنفسهم بمقاتلتهم، ولو أنهم نزلوا على حكم محمد ﷺ منذ اليوم الأول واعترفوا بخطئهم في نقض عهدهم، لما أهدرت دماؤهم وضربت أعناقهم، ولكن العداوة بلغت من التأصل في نفس حيي وانتقلت منه إلى نفوس بني قريظة حداً جعل سعد بن معاذ

نفسه، وهو حليفهم، يؤمن بأنهم إن أبقي على حياتهم لم تهدأ لهم نفس حتى يؤلبوا الأحزاب من جديد، وحتى يجمعوا العرب لقتال المسلمين، وحتى يقتلوهم عن آخرهم إن ظفروا بهم.

فالحكم الذي أصدره على قسوته إنما أصدره متأثراً فيه بالدفاع عن النفس، معتبراً ببقاء اليهود أو زوالهم مسألة حياة أو موت بالنسبة للمسلمين». [حياة محمد ﷺ هيكل ٣٥٠].

وهذا الذي يراه الدكتور هيكل من تحميل وزر هذه المذبحة على حيي بن أخطب، هو ما رآه سلام بن مشكم من رجال بني النضير حين بلغه خبر بني قريظة فقال: هَذَا كُلُّهُ عَمَلُ حَيٍّ بْنِ أَخْطَبٍ، شَأْمَنَا أَوْ لَا وَخَالَفْنَا فِي الرَّأْيِ، فَأَخْرَجْنَا مِنْ أَمْوَالِنَا وَشَرَفْنَا وَقَتْلَ إِخْوَانِنَا، وَأَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ سِبَاءُ الذُّرِّيَّةِ، لَا قَامَتْ يَهُودِيَّةٌ بِالْحِجَازِ أَبَدًا، لَيْسَ لِلْيَهُودِ عَزَمٌ وَلَا رَأْيٌ..

وهو ما تنبأ به كعب بن أسد وهو يحاور حيي بن أخطب إذ يقول له - حين جاء إليه يدق باب حصنه ويغره بجمع له من رجال قريش وغطفان -: وَيَحْكُ يَا حَيُّ! إِنَّكَ أَمْرٌ مَشْهُومٌ...! جِئْتَنِي وَاللَّهِ بِذُلِّ الدَّهْرِ، وَبِجَهَامٍ قَدْ هَرَأَقَ مَاءَهُ، فَهُوَ يُرْعِدُ وَيُزْزِقُ، لَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ! [صور من حياة الرسول ﷺ للدويدار ٤٣٩-٤٤١].

ويقول عميد/ فرج: «صدر هذا الحكم عن رجل راسخ العقيدة عميق الإيمان يحمله الجميع، ودليل ذلك أنهم قبلوا أن يكون الحكم وعاهدوه أن يقبلوا حكمه.

وهو حكم يقضي بقتل بني قريظة جميعاً، هو في مظهره حكم شديد فيه قسوة، ولكنه في جوهره حكم عادل لا جور فيه ولا ظلم.

ترى ماذا كان الموقف لو أن الأمر كان بأيديهم؟ كيف كانوا يتصرفون بالرسول ﷺ والمسلمين ﷺ إذا وقع هؤلاء جميعاً في أيديهم؟

إن المنطق يقول بأن بني قريظة كانوا سيقتلون محمداً وأصحابه ليتخلصوا إلى الأبد منه ومن دعوته، وقلته وأصحابه كان أملاً يحلم به اليهود والمشركون، ألم يجتمع المشركون حول داره في بلده يستهدفون قتلته؟ ألم يخرجوا إلى بدر ليتخلصوا منه ومن أصحابه؟ ألم يسعوا في أحد إلى قتلته وقتل الرؤوس من رجاله! ألم يكن اتفاق الأحزاب كما ورد على لسان وفد اليهود إلى قريش: «إِنَّا سَنَكُونُ مَعَكُمْ عَلَيْهِ حَتَّى نَسْتَأْصِلَهُ»؟

إن اليهود لو تمكنوا منه لقتلوه وقتلوا الإسلام وشرذوا أهل المدينة، فإذا ما أصبح زمام الموقف في يد محمد وأصحابه، فإن القتل واجب، وهو حكم عادل لا غبن فيه، وهو حكم دعا إليه وأوجبته الدفاع عن النفس.

إن نهاية بني قريظة تقع على عاتق حيي بن أخطب، فهو الذي دفعهم إلى حث العهد، وهو الذي سعى إلى تحزيب الأحزاب لقتال الرسول ﷺ، وهو الذي ألّب القبائل ضده، وهو الذي دخل حصنهم

بعد رحيلهم وحضهم على قتال الرسول ﷺ، ولو أنهم تمسكوا برأي كعب في أول الأمر، ولو أنهم نزلوا على حكم رسول الله ﷺ من بدء حصارهم، ولو أنهم اعترفوا بخطئهم في نقض العهد، لما تعرضوا لهذا الحكم ولما ضربت أعناقهم، ولقد قال سلام بن مشكم حين بلغه خبرهم: «هَذَا كُلُّهُ عَمَلُ حَيٍّ بْنِ أُخْطَبٍ»، وهذا القول تأكيد لما قاله كعب لحبي: «وَيْحَكَ يَا حَيُّ! إِنَّكَ أَمْرٌ مَشْهُومٌ..! جِئْتَنِي وَاللَّهِ بِذُلِّ الدَّهْرِ، وَيَجْهَامٍ قَدْ هَرَأَ مَاءُهُ، فَهُوَ يُرْعِدُ وَيُرْفِقُ، لَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ!..».

أما ما يثار من أن الرسول ﷺ قد قتل أسراه فهذا منطق منحرف وإثارة خاطئة، ذلك أن الرسول ﷺ وأصحابه كانوا قد تمهوا عن شد الوثائق حتى يشخن في الأرض، فوق أنهم قد ارتضوا حكم رجل اختاره حلفاؤهم ليحكم فيهم، ولو جاء حكمه بغير القتل لقبلة الرسول ﷺ.

[العبرة العسكرية في غزوات الرسول ﷺ لفرج ٣٠٣-٣٠٤].

ويقول أ/ رضوان: «وقد صار الإعدام هو الجزاء العادل للخيانة العظمى في كل دول العالم المتحضرة في القرن العشرين.

وقد طبق عليهم الرسول ﷺ هذا الحكم لخيانتهم العظمى له وللمسلمين، ونقضهم عهده، ومحاولتهم القضاء على المسلمين بطعنهم في ظهورهم ومعاونة أعدائهم عليهم.

وطبق الرسول القائد ﷺ - أيضًا - عليهم شريعتهم». [محمد ﷺ القائد الأعظم لرضوان ٩٧].

ويقول د/ ططاوي: «وبعد: فهل ظلم المسلمون اليهود بهذا الحكم؟

للإجابة على هذا السؤال نقول: كلا ما ظلمهم المسلمون، ولكن بني قريظة هم الذين سعوا إلى حتفهم بظلفهم، بسبب خيانتهم لليهود، التي بينهم وبين المسلمين في ساعة العسرة، والشرائع والقوانين جميعها تقضي بأن من خان عهده في مثل هذه الأوقات فجزاؤه الحرمان من الحياة.

وما صنعه المسلمون معهم ما هو إلا من باب الدفاع عن النفس، وبنو قريظة ما حافظوا على عهودهم قبل غزوة الأحزاب إلا خوفاً من المسلمين، فلما وجدوا أن المسلمين قد أحيط بهم من كل جانب، أعلنوا عن حقيقتهم، فتنقضوا عهودهم، وانضموا إلى المشركين المهاجرين». [بنو إسرائيل لطنطاوي ٣٠٥-٣٠٦].

ويقول د/ أبو خليل: «غزوة بني قريظة قصاص عادل لخيانة علنية، مع نقض معاهدة موقعة تعهدوا بموجيها دعم المسلمين، إذا دامهم عدو (وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وإن بينهم النصح والنصيحة، والبر دون الإثم، وإنه لم يأتهم امرؤ بحليفه..». ابن هشام ١٠٧/٢)، فانهازوا إلى جانب العدو، ومتى؟! عندما رأوا عشرة آلاف مقاتل حول المدينة، فظنوا أن الأمر قد انتهى، واستوصل المسلمون عن آخرهم.

والقوانين الدولية، قديمها وحديثها تجيز المعاملة بالمثل، المعاملة بالمثل مبدأ مقرر في القانون الدولي، وهذا المبدأ في الإسلام مقيد بالفضيلة، فإذا تعارض مع الفضيلة، أهمل واتبعت الفضيلة، فإذا قتل العدو الأطفال، أو هتك الأعراض بقي المسلمون مقيدين بالفضيلة لا يجارونه في رذائله.

عاهد رسول الله ﷺ اليهود منذ وصوله إلى المدينة، فلم يكن يرغب بقتال لذاته، ولكن لما أرادوا استئصال المسلمين عن بكرة أبيهم، فأن إذن القصاص المناسب، والذي يتناسب مع ضخامة الجرم. وفي العاقبة الغادر خاسرٌ دومًا، والناكث لعنده خاسر، وهم الذين بدأوا العداء والإفناء واستئصال المسلمين بمآلاتهم الأحزاب، فكانت صفقة خاسرة؛ لأنهم نبذوا عهودهم في أشد ساعات الحرج والشدة. [غزوة الخندق لأبي خليل ١٣٨-١٣٩].

ويقول د/ الزيد: «قد نجد من يستعظم حكم سعد بن معاذ رضي الله عنه في بني قريظة؛ ولكي تتضح الرؤية الكاملة عن هؤلاء القوم ويتضح عدالة الحكم الذي صدر فيهم نشير إلى ما يلي:

(١) يقول ابن القيم رحمه الله: «وَأَمَّا قَرْيَظَةُ فَكَانَتْ أَشَدَّ الْيَهُودِ عَدَاوَةً لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَغْلَظَهُمْ كُفْرًا؛ وَلِذَلِكَ جَرَى عَلَيْهِمْ مَا لَمْ يَجْرَ عَلَى إِخْوَانِهِمْ». [زاد المعاد ٣/١٢٩].

(٢) أن تذكر ماذا سيحل بالمسلمين من هؤلاء اليهود لو نجح الأحزاب في غزوهم للمدينة، ماذا سيحصل لو تمكن بنو قريظة من مهاجمة المسلمين من ظهورهم والتعدي على نسائهم وذرائعهم؟ إلى أي مدى ستكون الكارثة؟ لا شك أنها ستكون كارثة كبرى فيها الاعتداء على النساء والذرائع، والمسلمون في صفوفهم أمام الأحزاب وتلك الخيانة الكبرى التي وقع فيها بنو قريظة وجعلتهم يستحقون هذه العقوبة.

(٣) أن بني قريظة كانوا مقاتلين واستمرت لهم هذه الصفة إلى آخر لحظة، ولم يكونوا ناكثين للعهد فقط، بل حملوا السلاح وأمدوا الأحزاب بالموثون وساعدوهم واستمروا على الحرب حتى تم نزولهم على حكم رسول الله ﷺ. [ينظر: خاتم النبیین لأبي زهرة ٢/٩٤٩].

(٤) أن بني قريظة كانوا مواطنين مع المسلمين في المدينة يمثلون جميعًا الوطن الواحد الذي تعاهدوا فيه على النصر على من دهمهم، وعندما جاء الأعداء من الخارج إذا ببني قريظة - وهم مواطنون في المدينة - يتآمرون ضد أبناء المسلمين ويرتكبون ثلاث جرائم:

(أ) اتصلوا بالعدو ونقلوا له أخبارًا عن المدينة وأهلها.

(ب) مددوا العدو الغازي بما أمكنهم من عون مادي ومعنوي.

(ج) رفعوا السلاح ضد جيش المدينة ونكثوا العهد وأعلنوا استعدادهم لضرب أبناء بلدهم من الخلف في ظرف بالغ الخطورة. [ينظر: باشميل، غزوة بني قريظة ص ٢٥٠].

لأجل هذا فليس غريباً أن يصدر فيهم هذا الحكم من سعد بن معاذ رضي الله عنه ويؤيده وينفذه رسول الله ﷺ، فتلك جريمة ضد المجتمع المسلم بكامله كبيره وصغيره، وضد مؤسساته، بل وضد الرسول ﷺ وكفى بها جرماً.

(٥) أن حكم سعد رضي الله عنه هذا هو ما قضى به كتابهم المقدس، كما سبق بيانه. وهكذا يتبين لنا أن ما قضى به سعد رضي الله عنه لم يخرج عما حكمت به التوراة، وأيضاً فهم ليسوا أعداء مهزومين فحسب بل خائنون غادرون غير وافرين بالعهد [السيرة النبوية لأبي شهبة ٢/ ٤٠٩ هامش].
[فقه السيرة للزبد ٥١٦-٥١٨].

الرد على ادعاءات المستشرقين:

يقول الشيخ عيد: «وبعد هذا نعلق على ما سماه المستشرقون قسوة ومخالفاً للعرف المتبع في الحروب في النهاية التي كُتبت على بني قريظة بعد غزوة الأحزاب، وهم الذين نقضوا العهد، وخانوا ذمة المسلمين، وعاونوا الأحزاب من الكفار عليهم.

ويحلولي أن أسأل هؤلاء المستشرقين ماذا كان مصير المسلمين لو ظفرت بهم الأحزاب؟ ليس هناك بديل من القتل والأسر وضياع الأموال وهتك الأعراض، على أن قضاء النبي ﷺ فيهم كان من صميم نصوص توراتهم التي يؤمنون بها، كان ذلك على يد رجل ارتضوه حكماً بينهم، وهو سعد بن معاذ رضي الله عنه.

وبهذا نخلص بما خلص به العقاد من أن عبقرية محمد ﷺ في قيادته ودروسه الحربية الخالدة عبقرية ترضاه فنون الحرب، وترضاها المروءة، وترضاها شريعة الله والناس، وترضاها الحضارة في أحدث عصورها، ويرضاها المنصفون من الأصدقاء والأعداء». [دروس من حياة الرسول ﷺ لعبد ١١٦-١١٧].

ويقول د/ المجذوب: «يلاحظ من يقرأ ما كتبه المستشرقون والمؤرخون الغربيون عن غزوات الرسول ﷺ اهتمامهم الشديد بهذه الغزوة التي استغلوا ما انتهت إليه للإساءة إلى الإسلام والمسلمين، حيث لم يكفوا عن التنديد بما حدث من قتل المقاتلة من اليهود، وكان عددهم سبعمائة، وفي قول آخر ثمانمائة، وتباروا فيما بينهم في إظهار العطف والحزن والأسى لمقتل هذا العدد الكبير مما يوحي لمن يقرأ لهم أنهم أناس جُبلوا على الرحمة، وطُبعوا على الشفقة، وليسوا قتلّة سفاحين تقطر أيديهم وأفواههم بدماء الملايين من الأبرياء الذين غزوا بلادهم، وعاثوا فيها فساداً ونهبوا بطريقة بشعة واستنزفوا ثرواتها، وما هم يعيشون في رغد من العيش بفضل الثروات التي سرقوها، في حين أن أصحاب هذه الثروات الحقيقيين يعانون من الفقر والجوع والتخلف.

لقد تجاهلوا عن عمد ما ذكرناه حالاً من تصرفات يهود بني قريظة، وما كان سيؤدي إليه من قضاء على الإسلام وإنادة للمسلمين، ومضوا يذرفون الدموع على القتل الأبرياء أجداد العصابات الصهيونية

المجرمة التي أعملت الذبح والتقتيل في الفلسطينيين الأبرياء العزل الذين كانوا يقيمون في قراهم آمنين يظنون أن جنود بريطانيا التي كانت عظمى سيحمونهم بموجب ما يفرضه عليهم قرار الانتداب، ولكنهم تركوهم ليقعوا فريسة سهلة في أيدي القتلة السفاحين، الذين لم يتورعوا عن بقر بطون النساء الحبالى، وتمزيق أجساد الأطفال الصغار، وتدمير البيوت، ونهب محتوياتها في بطولة فريدة ليتهم أظهروا ربعها أو أقل من ذلك أمام هتلر وزبانيته.

ولكن هكذا هم اليهود في كل زمان ومكان، يعضون الأيدي التي تمتد إليهم بالمساعدة، ويستأسدون على الضعفاء والنساء والأطفال، ويتظاهرون بالشجاعة والجرأة أمام من يفوقونهم جبناً ممن اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة». [المستوطنات اليهودية للمجلد ٩٩-١٠٠].

كان الفتك ببني قريظة حكماً موقفاً وقصاصاً عادلاً:

يقول أ/ شاكر: «وكان تقتيل بني قريظة بعد غدرهم الذي قاموا به، ونقضهم العهد الذي فعلوه، يدل على حكمة بالغة، إذ إن كثيراً من الناس يطمع في رحمة المسلمين، وإنسانيتهم، وعدم حبهم لسفك الدماء، وعفوهم بعد المقدرة، والظن بهم خيراً بعد أن يقعوا في قبضتهم، وكان هذا ما يشجعهم على القيام بأعمال ضد المسلمين ثم يرجون العفو.

وهذا ما كان يطمع به بنو قريظة، إلا إن سعداً رضي الله عنه حين حكم عليهم هذا الحكم كان يشعر أن غدرهم لو نجح لعصف بالكيان الإسلامي كاملاً؛ لذا كان معهم حازماً.

وهذا ما يجب أن يعرفه المسلمون وأعداؤهم على سواء أن الحكمة قد تكون في الشدة، وأن للعطف موضعه، وأن للحزم موضعه أيضاً، وأن الأعداء عندما يتهادون في غيهم لا بد من أخذهم بالشدة والضرب على أيديهم بقوة، ولو أدى الأمر إلى إبادتهم جميعاً كما أيد بنو قريظة الذين كان إعدامهم درساً لمن عاش أيامهم ولمن يعيش من بعدهم.

وكان في مقتل بني قريظة الانتهاء من العدو الداخلي، والاتجاه نحو العدو الخارجي».

[التاريخ الإسلامي لشاكر ٢/ ٢٩٤].

ويقول د/ فيض الله: «قد تبدو القسوة في إعدام رجال بني قريظة، بهذا الشكل، وكانوا مئات؛ فهلا خُفِّفَ الحكم بالنفي، كما كان شأن بني قينقاع وبني النضير، وأين رحمة الإسلام - كما قيل - من هذه الملحمة التاريخية؟

والجواب: أن بني قينقاع وبني النضير، خانوا العهد، ونقضوا الميثاق، فكانت الحكمة في تطهير الأرض منهم، إذ كيف يمكن أن يخلد إليهم، ويوثق بهم، وقد نبذوا المواثيق، وغدروا بالعهود.

أما بنو قريظة، فقد كانوا شيئاً غير ذلك، كانوا قتلة، متماثلين مع الكفار على سحق الإسلام والمسلمين، وواد الإسلام في مهده، وكانوا مصرين على ذلك، لم يتوبوا، ولم يستغفروا ولم ينزعوا، حتى إن

حيي بن أخطب لما جيء به للقتل صرح بأنه ما لام نفسه على عدائه محمدًا ﷺ؛ وواجه الموت - كما ترى - بشيء من الرجولة والقوة، وتحمل التبعة، وصرح بأنه لا بأس بأمر الله، وأنه كتاب وقدر. ومعنى هذا الكلام الإحساس العميق، بأن ما نزل فيهم كان بما اقترفته أيديهم، وأنهم نالوا جزاء فعلتهم قصاصًا عادلاً؛ تُرى ماذا كانوا فاعلين بالمسلمين لو نجحوا مع المشركين في مؤامراتهم؟ أما كانوا ليجردوا حملة إبادة واستتصال، لا تبقي من المسلمين ولا تذر؟ إن العقو عنهم، هو بمثابة إعطائهم مهلة ليقوموا فيما بعد بتنفيذ ما عجزوا عنه من قبل: وليس في ذلك حكمة ولا مصلحة... بل تمكين المجرمين من تنفيذ الجريمة.

إن في القصاص حياة، وإن في العدالة رحمة، وإن الرحمة في القصاص من المجرم منعًا لإجرامه، وفي القضاء على الإجرام حيث وجد، قطعًا لدابر الفساد، وحسمًا لمادة الشر... وقد قال النبي ﷺ: «أَنَا مُحَمَّدٌ، وَأَحْمَدُ، وَالْمُقَفَّى، وَالْحَاشِرُ، وَنَبِيُّ الرَّحْمَةِ، وَنَبِيُّ التَّوْبَةِ، وَنَبِيُّ الْمَلْحَمَةِ».^(١) وللرحمة مواطنها، وللملحمة مواطنها، ومن الحكمة وضع الرحمة في أهلها، ووضع السيف في أهله، بحق وعدل.

نعم لم يرحم الإسلام بني قريظة، لفظاعة جريمتهم، وبالع خيانتهم، وكان في ذلك عادلاً حكيمًا. لكن هل عدل اليهود في تقتيل الآلاف من إخواننا في فلسطين، وفيما جاورها في أيامنا، وقت الاحتلال الغادر، وفي النزوح العاشم، وفي الإبادات الجماعية جنوب لبنان؟ ولماذا نسي اليهود هتلر والنازيين الذين نصبوا لهم المجازر، وأوقدوا لهم الأفران في أوروبا؛ وذكروا إخواننا في فلسطين، أولئك العزل الأبرياء، فحصدوهم، وما يزالون يَحْصِدُونَهُم بالنار، ويسحقونهم بالمدرعات، ويقصفون قراهم

(١) مسلم في الفضائل (٢٣٥٥) عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ ﷺ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُسَمِّي لَنَا نَفْسَهُ أَسْمَاءً، فَقَالَ: «أَنَا مُحَمَّدٌ، وَأَحْمَدُ، وَالْمُقَفَّى، وَالْحَاشِرُ، وَنَبِيُّ التَّوْبَةِ، وَنَبِيُّ الرَّحْمَةِ»، وأحد بنفس اللفظ عن حذيفة بن اليان ﷺ رقم ٢٣٤٤٣، وقال الشيخ الأرنؤوط: صحيح لغيره، ورواه أحمد رقم ١٩٥٢٥، ١٩٦٢١، ١٩٦٥١ عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ ﷺ قَالَ: سَمَى لَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ نَفْسَهُ أَسْمَاءً مِنْهَا مَا حَفِظْنَا فَقَالَ: «أَنَا مُحَمَّدٌ، وَأَحْمَدُ، وَالْمُقَفَّى، وَالْحَاشِرُ، وَنَبِيُّ الرَّحْمَةِ، وَنَبِيُّ التَّوْبَةِ، وَنَبِيُّ الْمَلْحَمَةِ»، وصححه الشيخ الأرنؤوط. مجمع الزوائد ٨/ ٥٠٥ في علامات النبوة (١٤٠٦٠)، وقال الإمام الهيثمي: رواه أحمد والبخاري وأحمد رجال أحمد رجال الصحيح غير عاصم بن بهدلة وهو وثقة وفيه سوء حفظ، وصححه الشيخ الألباني في صحيح الجامع الصغير رقم ١٤٧٣.

ورواه أحمد (٢٣٤٤٥) عَنْ أَبِي وَائِلٍ قَالَ: قَالَ حَذِيفَةُ ﷺ بَيْنَمَا أَنَا أَمْشِي فِي طَرِيقِ الْمَدِينَةِ إِذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِمَشْيِي، فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: «أَنَا مُحَمَّدٌ، وَأَنَا أَحْمَدُ، وَنَبِيُّ الرَّحْمَةِ، وَنَبِيُّ التَّوْبَةِ، وَالْحَاشِرُ، وَالْمُقَفَّى، وَنَبِيُّ الْمَلْحَمَةِ»، وقال الشيخ الأرنؤوط: صحيح لغيره.

وورد بلفظ: «أَنَا مُحَمَّدٌ، وَأَحْمَدُ، أَنَا رَسُولُ الرَّحْمَةِ، أَنَا رَسُولُ الْمَلْحَمَةِ، أَنَا الْمُقَفَّى، وَالْحَاشِرُ، يُعْتَذِرُ بِالْجِهَادِ وَلَمْ يُعْتَذِرْ بِالزَّوَارِعِ». (ابن سعد) عن مجاهد مرسلًا، وقال الشيخ الألباني: ضعيف - ضعيف الجامع الصغير (١٣٢١).

بالقنابل، على سَمْعِ العالم وبصره بعد أن أخرجوهم من ديارهم، واستعمروا أوطانهم، وجردوهم من كل قوة وطوق وقدر؟

إنهم عجزوا عن مواجهة القوة، فواجهوا المستضعفين.

إنهم لا يخضعون إلا للقوة؛ فهل فهم المسلمون جيداً قول الله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ، عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٦٠]. [صور وعبر لنفيض الله ٢٦٢-٢٦٣].

ويقول الشيخ القرني: «وانتهت صفحة من صفحات الختل والمكر والخسة، ولو قُدر لهم أن ينجوا أو أن يلقوا مصيراً مشابهاً لمصائر السابقين لهم للقي المسلمون منهم الكثير من الكيد والدس والإيذاء، ماذا يصنع النبي ﷺ مع قوم يتيقنون من نبوته، ومع ذلك يلجون في عداوته، ويقفون في طريق دعوته، ويحرضون عليه أعداءه؟

إنهم لم يؤمنوا مكابرة وعناداً وحسداً من عند أنفسهم، ومثل هؤلاء لا علاج لهم إلا التخلص منهم اتقاءً لشرهم، وحفاظاً على دار الهجرة من أن تظل مكاناً للديسية والوقية بين المسلمين، أو أن يظل فيها مكان يُطعن فيه المسلمون من الخلف، وقد جرّب المسلمون الإجماع فلم يزد على أن جعل هؤلاء المطرودين يملأون الجزيرة فساداً وكيداً، فكان لابد من هذا الإجراء الحاسم الجريء».

[هدي السيرة للقرني ١٧١-١٧٢].

حوار مع عدو:

يقول د/ أبو فارس: «لقد قدمنا لك دراسة تحليلية لغزوة بني قريظة، بأسبابها وأحداثها، والجرائم التي ارتكبتها يهود بني قريظة بحق المسلمين ودولة المسلمين، وحصارهم، ونزولهم عند حكم سعد بن معاذ رضي الله عنه سيد الأوس، وحليفهم في الجاهلية، فكان حكماً عادلاً، عدله رب السموات والأرض، ونقل ذلك التعديل الوحي، وأخبر بذلك رسول الله ﷺ».

ولكن بعض المستشرقين المعادين للإسلام، الذين يجهلون القواعد الإسلامية، والموازن الإسلامية في الحكم على الأشياء، وتوزيعها، وتقويمها أو يتجاهلونها، ينهرون ليشنوا على إسلامنا وديننا ورسولنا ﷺ وصحابته رضوان الله عليهم هجومًا شرسيًا، بهدف تشويه الإسلام في نفوس الناس، وتغييرهم منه حتى لا يتعاطفوا مع أهله، ولا يعتنقوه فيضعف معسكر الإيوان، ويقوى معسكرهم معسكر الكفر.

ويحاول هؤلاء المستشرقون أن يؤثروا على أبناء المسلمين الذين لم يكن لهم حظ وافر في الاطلاع على هذا الدين، وفهمه، والتعمق فيه، وخاصة أولئك الذين يُعدون ليتسلموا مكان الريادة والقيادة في دولهم ومجتمعاتهم إذا عادوا إليها، فيعدونهم إعداداً خاصاً، ويعتنون بهم عناية فائقة، حتى ينقلوا هذه الأفكار

المعادية للإسلام، والقيم غير الإسلامية، والسلوك المنحرف إلى بلاد المسلمين شيئاً فشيئاً حتى يعم الفساد ويطم.

ومما يؤسف له أن بعضاً من أبناء جلدتنا، يتكلمون بلغتنا، ويعيشون معنا قد انطلت عليهم الحيلة، وجرفهم التيار المعادي للإسلام، لعدم وجود حصانة سابقة أو مناعة قوية عندهم، فجاءوا بعد ذلك، وقد صبغوا بثقافة الغرب، وفكره ينقلون ما سمعوه من أعداء هذه الأمة عنها دون تحقيق أو تمحيص أو دراسة. ونحن الآن مع مستشرق خبيث، قد وجه سهام سمومه للنيل من الإسلام بمهاجمة الرسول ﷺ، وموقفه من بني قريظة، وكأن هناك تقارباً ونسباً بين هذا المستشرق وبينهم، فيتعاطف معهم تعاطفاً غريباً، عجبياً، يدفعه إلى قلب الحقائق وإخفائها، وتشويهها.

إنه المؤرخ المستشرق الأمريكي واشنطن أرفنج صاحب كتاب حياة محمد، بشر واشنطن أرفنج في كتابه هذا ^(١) تهماً مفادها النيل من الرسول ﷺ ووصفه بالقسوة وانعدام الرحمة في غزوة بني قريظة، وأن دينه قام على السيف، ولم يقيم على الحوار الفكري، والحجاج العلمي، وينال من سعد بن معاذ الذي حكم في يهود بني قريظة بوصفه بالقسوة والحق، وأن حكمه كان انتقاماً لنفسه، ولم يكن عادلاً. يقول واشنطن أرفنج في كتابه بالنص [ص ١٩٥] في معرض الحديث عن بني قريظة:

(عامل محمد ﷺ اليهود معاملة تطوي على القسوة، فقد جعل محمد مصيرهم في يد رجل قاس؛ ولذا تعتبر تلك المذبحة التي شهدتها سوق المدينة نقطة سوداء في تاريخ محمد ﷺ، وفي الحقيقة يعتبر موقف الرسول ﷺ من هذا الجنس منذ أن أصبحت السلطة والنفوذ في يده، يخالف ما نعرفه عنه من رحمة وإنسانية، وقد يكون الرسول ﷺ مدفوعاً إلى ذلك بما ظهر من اليهود من غدر وخيانة وحقْد، ولكننا نلاحظ محمداً ﷺ في بعض مراحل حياته كان رسول السيف).

فعند تأملنا لهذا النص نجد أنه يتضمن الأمور التالية:

(١) قتل يهود بني قريظة في وجهه نظر الكاتب جريمة ومذبحة تشكل نقطة سوداء في تاريخ الرسول ﷺ.

(٢) يهاجم الرسول ﷺ من خلال حكمه علي بني قريظة، بأنه كان قاسياً، ولم يكن رحيماً، وحكم رجلاً عديم الرحمة، شديد القسوة، يوافقه.

(٣) ثم يزعم أن انعدام الرحمة وشدة القسوة عند الرسول ﷺ تجاه اليهود ليس أمراً طارئاً، وإنما هو شيء دائم، منذ أن ملك زمام القوة بيده.

(١) هذا الكتاب اسمه: حياة محمد، مؤلفه: واشنطن أرفنج - ترجمة الدكتور علي حسني الخربوطلي - الطبعة الثانية - نشر دار المعارف بمصر - ينظر صفحة ١٩٣ وغيرها من الكتاب.

(٤) وحتى لا يُتهم بعدم المنهجية والموضوعية حاول أن يدفع التهمة عن نفسه، فذكر على استحياء ودون اكتراث، وبأسلوب التشكيك سبب الحكم فقال: وقد يكون الرسول ﷺ مدفوعاً إلى ذلك.. وصيغة (قد يكون) تفيد الشك، ولا تفيد اليقين، ويتأكد هذا المعنى إذا عدنا إلى اللغة الأجنبية التي كتب فيها الكتاب، ولكننا لم نعثر إلا على هذه النسخة المترجمة، فقد تكون العبارة بالإنجليزية perhaps أي ربما، أنه احتمال قد لا يحصل وقد يكون أو لا يكون.

(٥) وحتى لا يفتح مجالاً للقارئ أن يفكر أن هناك أسباباً موجبة لهذه العقوبة، ومقنعة استدرك على الفور فأتبع عبارته هذه بقوله - ليحول انتباه القارئ وليقطع تفكيره - ولكننا نلاحظ محمداً في بعض مراحل حياته كان رسول السيف.

وحين يتحدث عن حكم سعد ﷺ في بني قريظة يقول [ص ١٩٣]: (وقد يكون سعد مدفوعاً إلى اتخاذ هذا القرار بحنقه لما أصابه من جراح في حرب الخندق، وكأنه أراد الانتقام من بني قريظة.. وهكذا انتقم سعد بن معاذ من بني قريظة، وبعد فترة زادت حالة جروحه سوءاً ومات).

وإذا تأملنا قوله في سعد ﷺ وحكم سعد ﷺ فإننا نلاحظ أنه حوى الأفكار الهدامة التالية:

(١) إن سعد بن معاذ ﷺ حين اتخذ حكمه بحق بني قريظة لم يكن عادياً، وبحالة هادئة، وإنما كان منفِعلاً غاضباً حائِثاً، والإنسان في مثل هذه الحالة النفسية ينبغي أن يبعد تماماً عن الحكم في مثل هذه القضايا الحساسة المصيرية الخطيرة؛ لأن العاطفة الشائرة تتجاوز العقل وتلغيه، ولا تنظر إلى أسباب ومبررات.

وكانه يقول للقارئ فاحكم على دقة الحكم إذا كان الأمر كذلك.

(٢) إنه يصرح بما يمكن أن يستنتجه القارئ حتى يؤثر عليه فيقول بوضوح: إن حكم سعد بن معاذ ﷺ هذا لم يكن عادلاً، ولا رحيماً؛ لأنه اتخذ انتقاماً لنفسه، إذ أصيب بسهم في غزوة الأحزاب التي نقضت قريظة العهد فيها.

(٣) إنه يصور الخلاف بين سعد بن معاذ ﷺ وبين بني قريظة خلافاً شخصياً ذاتياً، تلعب فيه المصالح وتسيره، ومن هنا كان الحكم كذلك انتقاماً في رُعمه لا يستند إلى مبررات وأسباب وجيهة.

(٤) إنه يلمز بسعد بن معاذ ﷺ، وباستشهاده، فيقول: وبعد فترة زادت حالة جروحه سوءاً ومات. والأمر ليس كذلك، فقد مر بنا الحديث سابقاً أن سعد بن معاذ ﷺ دعا الله ﷻ أن يرزقه الشهادة في جرحه هذا إذا انتهت فترة مهاجمة قريش للمسلمين، فاستجاب الله دعاءه، وأكرمه بالشهادة، كما روى ذلك الإمام البخاري رحمه الله في صحيحه.

الحوار والمناقشة:

إننا من خلال دراستنا لأحداث غزوة بني قريظة وأسبابها ونتائجها نقول:

(١) إن المطلع على كتب السيرة النبوية يجد أن قبيلة يهود بني قريظة قد ارتكبوا جرائم عديدة بحق

الرسول ﷺ، وبحق المسلمين - رضوان الله عليهم - في المدينة.

(أ) إن بني قريظة مواطنون في الدولة الإسلامية في المدينة، ومن رعاياها، قد ضمن لهم المسلمون الحرية الدينية فجاء في وثيقة العهد: لليهود دينهم وللمسلمين دينهم، وهم كمواطنين يخضعون لقانون هذه الدولة، ولهم حقوق وعليهم واجبات قد تضمنت الوثيقة ذلك، وكان من بنود الوثيقة أن اليهود والمسلمين يلتزمون بالدفاع عن المدينة إذا دهمها عدو، وأنه لا تُجار قريش ومن ناصرها.

ويهود بني قريظة لم يقوموا بشيء من واجباتهم المقررة عليهم بموجب الوثيقة، وتمردوا على كل ما فيها، ودولتهم في حالة حرجة، إذ العدو على الأبواب يهدد أمنها ونظامها، وكيانها بالزوال.

أي جريمة أعظم من أن يتمرد المواطن على دولته التي تحمي وتحمي عرضه وماله، فلا يهب يقاتل مَنْ جاؤوا ليسحقوا المواطنين في الدولة، ويقوضوا أركانها؟!

أليست هي الخيانة العظمى والخروج على النظام العام والأمن العام؟

(ب) لم يكتف يهود بني قريظة بجريمتهم تلك، وهي جريمة التمرد على الدولة، وعدم القيام بالواجبات في ظروف عصيبة، بل ضموا إلى جريمتهم جريمة أخرى، إنهم لم يقفوا محايدين، بل انضموا إلى معسكر الأعداء، وقرروا المشاركة في قتال المسلمين، وذبحهم، وكما قال حيي: ليتخلصوا من محمد ﷺ ومَنْ معه.

إنه تواطؤ مع عدو أثناء الحرب، ماذا تسمي القوانين الوضعية هذه الجريمة؟ إنها الخيانة العظمى الذي تستوجب عقوبة الإعدام.

(ج) وجاوزوا هذا إلى حد المباشرة في الجريمة، إذ خرج اليهودي نباش بن قيس في عشرة من أشداء رجالهم للاعتداء على نساء المسلمين، وذرايعهم، فتصدى لهم أبطال المسلمين فرمواهم بالنبال، فولوا على أعقابهم مدبرين، ولجأوا إلى حصونهم.

أليس هذا الفعل خيانة وغدرًا أكبر من الخيانة العظمى؟

(د) لقد قدّم يهود بني قريظة المساعدات المالية للأحزاب فزودوهم بالتموين، إذ أرسلوا إلى الأحزاب عشرين جملاً محملة بالموء فاستولى عليها المسلمون في الطريق.

ماذا يُسمي هذا رجال القانون؟

التعاون مع العدو ضد الدولة التي ترعاك وتصون عرضك؟

(هـ) لقد نالوا من رئيس الدولة التي يعيشون في كنفها، فشتموه وشتموا أزواجه بكلام قبيح امتنع الرواة الذين سمعوه أن يصرحوا به لقبحه.

وكل قوانين الدنيا تمنع وتحظر أن يطيل أحد من الرعية لسانه على رئيس الدولة بشتيم عرضه.

(و) لقد نالوا من الوفد الذي جاء يطالبهم بالوفاء بالتزاماتهم فواجهوه بكلام بذيء، كما أنكروا العهد مع المسلمين، واستخفوا برسول الله ﷺ.

أقول: إن القوانين في العالم الغربي والشرقي تحكم بالإعدام على من يتعاون مع دولة معادية فيقدم لها بعض المعلومات التي تمس الأمن في البلاد.

إن ما اقترفه يهود بني قريظة من جرائم ذكرناها سابقاً الواحدة منها تستوجب القتل والتنكيل، فكيف إذا اجتمعت هذه الجرائم منهم كلها؟ إن العدل يقضي أن تغلظ العقوبة، ويُشدد في الجزاء.

لقد حكم عليهم سعد بن معاذ رضي الله عنه بما يستحقونه من عقوبة جزاءً وفقاً لما اقترفت أيديهم، وكان هذا الحكم هو حكم الله تبارك وتعالى، فلا معقب على حكمه، ولا راد لقضائه.

ولم الإنكار على سعد بن معاذ رضي الله عنه أن يحكم بهذا الحكم؟

وإني أتساءل: ترى لو كانت الغلبة للأحزاب وبني قريظة، ماذا سيكون مصير المسلمين؟ إن المصير قد اتفقوا عليه سلفاً أن يبیدوا خضراء المسلمين.

ثم ماذا نجد في كتاب اليهود من عقوبة مع أناس اقترفوا ما اقترفت يهود بني قريظة من الخيانة الكبرى.

إنهم يعاقبون غيرهم على أقل مما اقترفوه بالقتل والسبي، كما سبق بيانه من كتابهم المقدس.

لا مكان للعفو عن بني قريظة:

إن التجارب مع هذه القبيلة اليهودية تقرر أن العفو عما اقترفته من جرائم ليس علاجاً يحفظ للمسلمين دولتهم، ويبقى عليهم أمنهم، بل يطمع فيهم غيرهم، ويجري أعداءهم عليهم.

لقد نقض يهود بني قريظة العهد مع رسول الله ﷺ فعفا عنهم أكثر من مرة، فلم يتعظوا، ولم يعتبروا، ولم يراعوا ما هم فيه من الغدر والخيانة.

لقد نقضوا العهد مع الرسول ﷺ في غزوة بدر إذ زودوا قريشاً بالسلاح فراجعهم رسول الله ﷺ، فاعتذروا عن ذلك، فعفا عنهم، ونقضوا العهد مع الرسول ﷺ أثناء صراع الرسول ﷺ مع بني النضير فعفا عنهم، وجدد العهد معهم ونقضوا العهد للمرة الثالثة مع الرسول ﷺ فكان من المنطق العسكري، والعدل في الحكم أن يعاقبهم بالعقوبة التي تتناسب مع جرائمهم في المرة الثالثة، وإلا فسيطمع فيه الأعداء، ولا يسر الأصدقاء.

ثم تُرى لو عفا عن بني قريظة هل ستتوقف عن تأمرها ضد الرسول ﷺ، أم ستستمر المؤامرات، وستحشد الحشود، وتشن الحروب، وإذا قدر لها أن تنجح ولو مرة واحدة على المسلمين، ستكون الطامة الكبرى، وسبق السيف العذل كما يقولون.

إن يهود بني قريظة لا يمكن اعتبارهم أسرى بالمفهوم القانوني الحديث حتى يطلب أن يعاملوا معاملة الأسرى، وإن كان لا يمنع في دين الإسلام أن يُقتل الأسير إذا رأى رئيس الدولة الإسلامية أن قتله يحقق المصلحة العامة للمسلمين.

ومع هذا نقول: لا يمكن اعتبارهم أسرى؛ لأنهم ليسوا مقاتلين في جيش دولة معادية أسروا نتيجة معركة من المعارك، إنما هم من رعايا الدولة الإسلامية، عاشوا فيها، وانتفعوا بمرافقتها وخيراتها، ولهم حقوق وعليهم واجبات، ومن ثم فهم خونة غادروا خائوا دولتهم وشعبهم.

كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبًا.

وبعد هذا كله يدعي واشنجتون أرفنج أن محمدًا ﷺ رسول السيف! كيف يكون هذا؟ فأرفنج إما أن يكون جاهلاً لتاريخ العلاقة بين الرسول ﷺ وبين اليهود، وإما أن يكون عالمًا بها. أما الاحتمال الأول فبعيد جدًا إذ لا يعقل أن يكتب في السيرة النبوية ولا يعلم عن هذه العلاقة الشيء الكثير.

والذي نرجحه الاحتمال الثاني هو أن أرفنج عالم بتاريخ العلاقة بين الرسول ﷺ وبين اليهود، ولكنه لم يرد أن يستخدم علمه ومعلوماته في البحث بدقة؛ لأنه إن فعل ذلك فقد فوت عليه تحقيق الهدف الذي يكتب من أجله، وهو الطعن والتشكيك في الدين الإسلامي، وتوجيه التهم الباطلة للرسول ﷺ حتى يشوه الصورة الصادقة لهذا الرسول ولهذا الإسلام.

إن النزاهة العلمية، والموضوعية في البحث، توجب عليه وعلى غيره ألا يخفي شيئًا مما يعلم، وإلا فهي الخيانة العلمية، واللامنهجية في البحث.

إن الذي يقرأ سيرة الرسول ﷺ مع اليهود يجد أنه أول مقدمه للمدينة قد وادعاهم، ودعاهم إلى الإسلام وحاورهم في كتابهم المقدس، وأنهم مأمورون بالإيمان به واتباعه ومناصرته، وشهد بذلك بعض أخبارهم كعمران بن حصين الذي أسلم حينما رأى رسول الله ﷺ واستمع منه وغير اسمه إلى عبد الله بن سلام، وميمون بن يامين، وغيرهم، وبعضهم عرف الحق وقامت لديه الأدلة ولكنه لم يؤمن بهذا الرسول حسدًا وحقدًا وعداوة كحبي بن أخطب وأخيه ياسر كما تروي صفية بنت حيي ذلك عن أبيها وعمها، ومنهم زعيم بني قريظة كعب بن أسد، إذ قال لقومه: إنكم والله لتعلمون أنه رسول الله، ودعاهم إلى الدخول في الإسلام، واعترف أمام رسول الله ﷺ بأنه رسول الله ولكنه لم يؤمن به خوفًا من أن تعيره اليهود، فأخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم ولبس المهاد.

لقد كان اليهود يحدّثون أهل المدينة من أوس وخزرج عن قرب محيي رسول سيتبعونه ويقاتلون أهل يثرب معه، ذكرهم بهذا الأوس والخزرج، ولكن لما ظهر هذا الرسول ﷺ، فلم يكن من اليهود إلا أن كفروا به، وحاربوه، وصلدوا عن سبيله، وتعاونوا مع جميع أعدائه ضده.

كان الرسول ﷺ وأصحابه يجاورونهم، ويقيمون عليهم الحجة تلو الحجة، والبرهان إثر البرهان، ولكنهم لم يؤمنوا، ولهم ذلك، ولم ينكر الرسول ﷺ ذلك فألزمهم بالإسلام، بل أذن لهم أن يقتلوا على يهوديتهم، نصت على ذلك الوثيقة، وبقي هذا النص دون أن يمس، وحرص على مسالمتهم، وعدم قتالهم، إلا أنهم أبوا مسالمتهم، وسعوا في حربه، يتقضون العهد، ويؤلبون عليه الأعداء، فحاربتهم بنو قينقاع فأجلاها ولم يكرهها على الإسلام وقد استسلمت له، وكذلك فعل مع بني النضير وقد تأمروا على قتله، فحاصروهم، واستسلموا له، فلم يكرههم على الإسلام، بل رحلوا من المدينة وهم على يهوديتهم، بل إن ربحانة وهي امرأة يهودية من بني قريظة أراد الرسول ﷺ أن يعتقها ويترجمها، وعرض عليها الإسلام فأبت فلم يكرهها، وظلت مدة حتى اعتنقت الإسلام، فجاء من يخبر رسول الله ﷺ بذلك، فسرّ سرورًا عظيمًا.

ولا نريد أن نسترسل في الاستدلال على أن هذا الدين لا يكره أحدًا على اعتناقه؛ لأن القرآن قرر هذا الأمر وفرغ منه، قال تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمَرْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة].

وقال سبحانه: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَن شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩].

والسيرة تخبرنا أن رسول الله ﷺ لم يكره أحدًا من المجوس على الإسلام، والتاريخ الإسلامي بعد ذلك يخبرنا أن الإسلام فتح بلادًا كثيرة كالهند، وبقيت فيها دياناتها الوثنية التي تتجاوز ثلاثمائة ديانة. وبعد كل هذا يدعي أرفنج أن الإسلام قام بالقوة، وعلى البطش وسفك الدماء، وأن رسول الله ﷺ كان رسول سيف.

أما إذا أراد أرفنج أن يقف الرسول ﷺ موقف: من لطمتك على خدك الأيمن فأدر له الأيسر، ومن طلب منك الرداء فأعطه الثوب أيضًا، ومن طلب منك أن تمشي معه ميلاً فامش ميلين، فهذا ضرب من الخيال البعيد عن الحقيقة والواقع، والإسلام دين واقعي يواجه الفكرة بالفكرة والحجة بالحجة، ويقابل أيضًا القوة بالقوة، والغدر بالتأديب، والخيانة بالعقوبة الزاجرة سواء كان الخائن مسلمًا أو كافرًا يهدد أمن المجتمع الإسلامي، وكيانه السياسي.

إن الإسلام يحرم على أتباعه أن يقبلوا الظلم وأن يرضوا به، ويحرم عليهم أيضًا أن يكونوا ظالمين لأحد من الخلق: «يَا عِبَادِي! إِنِّي حَرَمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلَا تَظَالُمُوا».

[حديث قدسي رواه الإمام مسلم في صحيحه، مختصر مسلم للمنذري رقم ١٨٢٨].

إن الإسلام من أهم سماته الواقعية والجدية، لا يطلب من أصحابه وأتباعه أن يعيشوا في الخيال، وإنما يأمر أهله أن يتعاملوا مع الواقع، وأن يكون هذا التعامل مبنياً على العدل، والعدل يقضي على الظالم فينتصف منه، والمظلوم ينتصف له من الظالم، والجاني يُعاقب بعقوبة عادلة، والعقوبة العادلة تكون بأن تتناسب مع الجريمة، التي ارتكبتها الجاني.

فالظلم كل الظلم أن أعاقب من ارتكب جنحة بسيطة بالقتل، وينفس المستوى، إن من الظلم ألا يعاقب القاتل بالقتل، والجراح بالجرح، والمعتدي بأن يُعتدى عليه بمثل ما اعتدى على الناس، ومن يهدد أمن المجتمع، ويسعى لتدمير الدولة ومؤسساتها، ويعمل لسفك دماء مواطنيها وهو منهم لا بد أن يُخلص الناس من شره ويذوق وبال أمره حتى يكون عبرة لمن اعتبر، وعظة لمن اتعظ، وسيعلم الذين ظلموا أي مقلب ينقلبون.

ولقد وقف سعد بن معاذ رضي الله عنه ينصح اليهود أن يتوقفوا عن غدرهم هذا، ويذكرهم بما يجب عليهم أن يفعلوا من مناصرة لدولتهم، فأبوا وشتموا رسول الله ﷺ، وشتموه والوفد الذي معه، وأقدموا على جرائمهم التي ذكرناها لك في الصفحات السابقة، فماذا يحكم عليهم سعد بن معاذ رضي الله عنه؟

إن الظلم البين من سعد رضي الله عنه أن يعاقب هؤلاء الخونة الغادرين بأقل من القتل والسبي، نعم إنه ظالم للمسلمين، ظالم للحقيقة والحق فلم ينطق بها، إنه ظالم للدولة التي يعيش فيها؛ لأنه يعرضها لتيارات عاصفة أخرى، ولمحاولات مجرمة قد تنجح في القضاء عليها، حيثئذ يكون سعد بن معاذ رضي الله عنه رحيماً، أما أن يكون حازماً فهو الانتقام للنفس وهو القسوة وهو الغلظة!

ليست الرحمة في العفو عن الجناة وعدم معاقبتهم وعدم إنصاف المجني عليهم، إنما الرحمة كل الرحمة أن يقتصر من الجناة للمجني عليهم.

تنبيهات وملاحظات:

وأريد هنا أن أسترعي انتباه المسلمين الطيبين إلى النقاط التالية حرصاً مني عليهم، وعلى إيمانهم، وعلى مستقبلهم الأخرى فأقول:

(١) إن حكم سعد بن معاذ رضي الله عنه بقتل محاريبي بني قريظة وسبي النساء والذرية هو حكم الله تبارك وتعالى، كما روى الإمام البخاري في صحيحه وغيره من أصحاب السنن.

(٢) لا يحل لمسلم يؤمن بالله واليوم الآخر أن يعترض على هذا الحكم أو يتقدمه ويتبرم منه.

(٣) إن الاعتراض على حكم سعد بن معاذ رضي الله عنه، هو اعتراض على حكم الله، والاعتراض على حكم الله كبيرة من الكبائر تهلك أصحابها وتوردهم موارد الهلاك، فالؤمن مطلوب منه أن يسلم بحكم الله وحكم رسوله، قال سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾

وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا ﴿٢٦﴾ [الأحزاب]، وقال سبحانه: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ ﴿٦٥﴾ [النساء]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٥١﴾ [النور].

(٤) المستشرقون الذين لا يؤمنون بالإسلام ولا يعتنقونه عقيدة وشرعية ونظام حياة أعداء لهذا الدين، ومن منطلق عدائهم لهذا الدين يوجهون حملاتهم الظالمة على رسول الله ﷺ وعلى أصحابه حتى يشوهوا الصورة المشرفة لهذا الدين، فيجب علينا أن نحذرهم، وألا نأخذ شيئاً عنهم فيما يتعلق بديننا؛ لأنهم يَدسون السم مع الدسم.

(٥) إن هؤلاء الذين يسيرهم الحقد والكره للإسلام لا يمكن أن يكونوا موضوعين، ولا علميين في نقدهم؛ لأن للنقد في الإسلام قواعده ومنطلقاته وأساسه ومركزاته، وهم لا يلتزمون بها، ولا يؤمنون بها، ويدعون إلى رفضها ونبذها.

(٦) إن هؤلاء في الغالب يقفون مع اليهود وفي صف الأعداء يناصرون كل عدو ويؤيدونه، وكان الذي يجمعهم معه هو العداء لهذا الدين.

(٧) لم التركيز على الحديث عن يهود بني قريظة ووصف المسلمين بالقسوة في حكمهم عليهم، ولا يركزون في كتابتهم وأحاديثهم عن الحروب الصليبية وما اقترفه الصليبيون من جرائم تقتشر هولوها الأبدان، وتشيب لها الولدان، ومن أناس جاؤوا من بلادهم يريدون احتلال بلاد المسلمين، وغصب مقدساتهم، وما قتله الصليبيون المعتدون من المسلمين أضعافاً مضاعفة لما قتله المسلمون من بني قريظة، مع اختلاف في الأسباب والمبررات، إذ كان المسلمون محقين، وكان الصليبيون ظالمين غادرين.

(٨) التركيز في كتابة هؤلاء عن الماضي البعيد ويتناسون الحاضر القائم، أو الماضي القريب، لماذا وجدنا مئات الكتب تطعن في الرسول ﷺ، وتطعن في أصحابه، وتصف سعد بن معاذ رضي الله عنه بالقسوة وما إلى ذلك من ألفاظ قبيحة تدل على قبح أهلها، ولا نجد عشر معشار هذه الكتابات عن جرائم اليهود في فلسطين ولبنان وغيرها، لماذا لا نجد هؤلاء أنفسهم لا يتحدثون صدقاً ويقولون حقاً عن مذابح صبرا وشاتيلا وتل الزعتر، وبرج البراجنة، ونهر البارد والبدواوي، ومذابح الجنوب، ومدرسة بحر البقر، ومذابح دير ياسين وقيية وحوسان وفوكين وغزة وخان يونس إذ كانوا يجمعون الشباب في فلسطين عام ١٩٥٨م ويصفونهم صفوفاً رافعين أيديهم ثم يطلقون عليهم الرصاص.

نعم لا يتحدثون عن هذا لأن الضحايا مسلمون، وهم يريدون ذبح المسلمين وتشييدهم.

ألا فليتعض المغفلون الذين يركضون وراء فتات هؤلاء المستشرقين الأعداء، وهل يأخذ الإنسان من عدوه ويطمئن إليه، لا سيما إذا كان بلا خلق ولا قيم». [الصراع مع اليهود لأبي فارس ١٣٧/٢ - ١٥١، وينظر للتفصيل: غزوة بني قريظة: دراسة وصفية تحليلية مع نقد لبعض آراء المستشرقين لوقدان ٢٨٥ - ٣٣١].